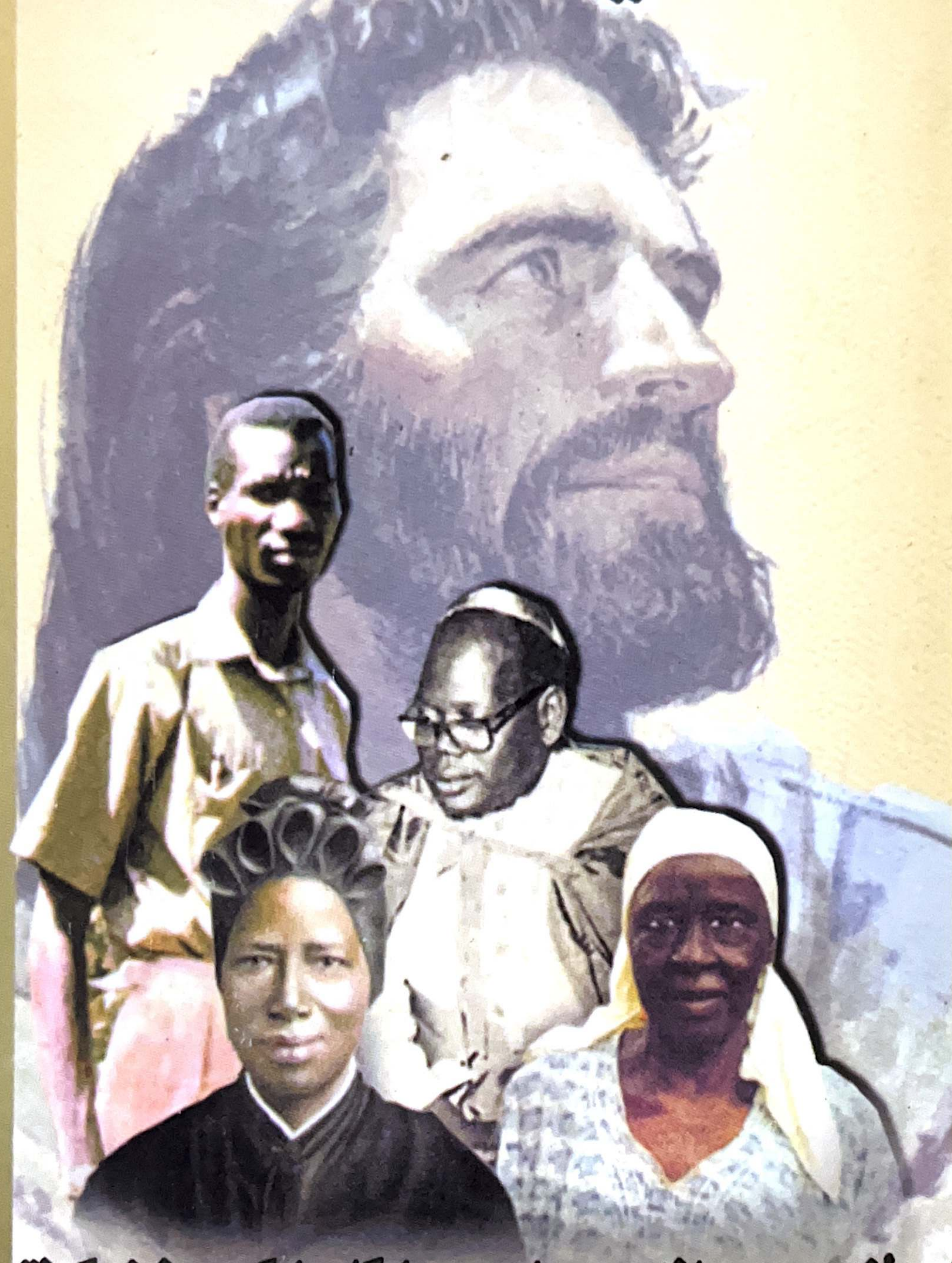
رحلة الإيمان المسيحي
في السودان



وليم أندرسون   اندرو هويلر   مايكل باركر   نينو كونتران

ترجمة : زكرى رزق جيد

رحلة الإيمان المسيحي في السودان



تأليف

وليم اندرسون   أندرو هويلر   مايكل باركر   نينو كونتران

ترجمة

زكرى رزق جيد

الكتاب: رحلة الإيمان المسيحي في السودان

تأليف: وليم اندرسون - اندرو هويلر

مايكل باركر - نينو كونتران

الترجمة: زكرى رزق جيد

الناشر: لوجوس Future Media

الجمع والإخراج الفني والطباعة

لوجوس برنت سنتر

تليفون: ٦٩٠٦١٩٥

فاكس: ٢٩٠٦١٦١

ص . ب . ٢٤٥٥ الحرية

E-mail: logsoscenter@yahoo.com

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٩٨٦٣

الترقيم الدولي: 977-381-008-9

في هذا الكتاب

تقديم

قصص
من رحلة الإيمان المسيحي في السودان

الإيمان المسيحي في السودان عبارة عن سلسلة من الكتب باللغة الإنجليزية، وصل عددها اليوم الى ١٣ كتاباً. وقد بدأ العمل في هذه السلسلة في عام ١٩٩٧ كنتيجة للسمنار الذي عقد في كينيا في بداية ذلك العام. ولم تكن كل الدراسات في ذلك السمنار قاصرة على المسيحية. مع أن معظمها كان نابعاً من المسيحية. ومن يصدق... مسيحية؟ وفى السودان ؟؟ أمر يثير الدهشة عند الكثيرين.

كانت المسيحية الأولى في السودان التي حكمت الأرض والتاريخ في بلاد النوبة قد خفت نورها بعد عام ١٥٠٠م ولكنها لم

تختفي. وجاء الحكم الإنجليزي في السودان بحساسية شديدة نحو الإسلام فمنعوا فتح مراكز تبشيرية في الشمال الذي يقطن الإسلام معظمه. وكأن ذلك لم يكن كافياً للمسلمين في الشمال، فهم يعتبرون أن السودان كله، بلد إسلامي.

هذه القصص تحكى لنا عن شخصيات سودانية مسيحية – إنها تحكى لنا قصة رحلة الإيمان المسيحي في السودان. وبعض هذه الاختبارات كلفت أصحابها الكثير على مدى مئة عام في السودان الحديث. وأنا مدين للشيخ ذكرى رزق جيد، الذي عاش وعلم وعمل في السودان أكثر من أربعين عاماً. وهو هنا يستخدم خبرته الطويلة في السودان ليترجم لكم هذه القصص مع الإشراف على طبع ونشر هذا الكتاب.

روح الله يعمل

تبدأ **القصة الأولى** في أعماق التاريخ من القرن التاسع عشر – حيث كان الصراع بين الحرية والاستعباد. إنها قصة شاب، ضاع اسمه الحقيقي في صفحات تاريخ ما أهمله التاريخ. مع انه كان من

الطبقة الحاكمة في إمبراطورية الزاندى، ومن أسرة السلطان زيمي – إمبراطورية عظيمة سلبها المغتصبون تجار الرقيق الذين اختطفوه وباعوه إلى رجل مسيحي من مصر. وهناك في مصر راح العبد الشاب الصغير يبحث عن الحق – فقاده البحث إلى الإسلام. ثم من الإسلام إلى الكنيسة القبطية. وأخيراً إلى الايمان الانجيلي. عند ذلك سمّى نفسه "إبراهيم عبد المسيح" وعمل مبشرا في مصر. ثم جاء إلى السودان ليعمل كبائع متجول للكتاب المقدس. عاد إلى بلاده التي خرج منها بسبب تجارة الرقيق. وروح الله يعمل بقوة.

القصة الثانية عن عشيرة مسلمة جاءت بكاملها للمسيح. آمنت بالمسيح بدون مبشر، بدون إنجيل، بدون مرسل . آمنت بالمسيح عن طريق الأحلام والرؤى، عن طريق أحداث غير حقيقية، حتى المرات التي ظهر فيها الرجل الذي قال أن عمره (٥٠٠سنة). إنها قصة عشيرة عبد الله ورحلتها إلى الإيمان المسيح – قصة من قصص السودان في عصره الحديث. قصة أثارت حولها الكثير من الجدل والحوار والاهتمام. قصة تسلب العقل لسحرها وغرابتها.

وهذه القصة التي كتبت بعناية شديدة لتحكى عن صاحب الأحلام والرؤى ، إنما هي قصة سودانية حقيقية، حتى وإن لم يصدقها أحد. لكنها تظل القصة التي تثبت عمل روح الله. تظل القصة التي تذكرنا بقول الرب يسوع في (يوحنا٣: ٨) " والريح تهب حيث تشاء. وتسمع صوتها. لكنك لا تعلم من أين تأتى ولا إلى أين تذهب". وهكذا يقود روح الله رجلاً عن طريق الأحلام والرؤى، وفي رسالة من القرآن الكريم، وبإرشاد من الرجل الذي قال أن عمره ٥٠٠ سنة.

حرية من الاستعباد

في قصتنا الأولى عن إبراهيم عبد المسيح، نجد أن السودان كان يعيش عصر تجارة الرقيق قبل القرن العشرين وقبل أن يصبح جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. وقد ظهرت محاولات كثيرة لوقف تجارة الرقيق في السودان، كان أولها ما قامت به الإرسالية الكاثوليكية لأواسط أفريقيا. وكانت تلك الإرسالية تهدف إلى أن تتمتع القارة الأفريقية بنعمة الفداء. الفداء من العبودية ثم الفداء بدم المسيح وبكلمة الله. وقد حاولت الإرسالية الكاثوليكية في القرن التاسع عشر أن تحقق هدفها المزدوج. ومع إن الإرسالية لم تنجح النجاح الكامل،

إلا أنهــا تركــت لــنا ذكــرى أحد الأبطال الذين كافحوا لوقف تجارة الرقيق في أفريقيا، وهو دانيال كمبوني.

أمـــا البطل الثاني الذي أصبح أيقونة الحكم الإنجليزي في السودان فهــو الجــنرال تشــارلز غــوردون الذي سار في نفس طريق دانيال كمبونى فى الكفاح من أجل وقف تجارة الرقيق في السودان، وللأسف كلاهما فشل في تحقيق الهدف، وكلاهما مات في الخرطوم.

لــم يكــن كمــبونى وغوردون هما الوحيدين اللذين اهتما بوقف تجــارة الرقــيق في أفريقيا. فهذا هو الخديوي محمد سعيد حاكم مصر فــي الفــترة مــن ١٨٥٤- ١٨٦٣ وهو أول من حارب تجارة الرقيق بمرســوم يصدر رسمياً من حاكم أفريقي. ولكن لأن خديوي مصر لم تكــن له الســلطة الكاملة في السودان ليتمكن من اقتلاع تجارة الرقيق مــن جذورهــا، لــم يكــن لمرسوم الخديوي الأثر المطلوب. ثم جاء الخديــوي إســماعيل (١٨٦٣- ١٨٧٩) الــذي كــان أكــثر اهتماماً بالقضــية، فعيــن غــوردون حاكماً عاماً للسودان على أمل أن يتمكن غــوردون مــن القضــاء على تجارة الرقيق. ومع أن غوردون كان علــى نفــس الدرجة من الاهتمام بمكافحة تجارة الرقيق في السودان، إلاَّ أن محاولاتــه كلهــا كانت وقتية. حتى أنه كتب في مذكراته: " إن تجــارة الرقــيق تعتبر من أبجديات الحياة في السودان" ولقد كانت

هــذه هـــي الحقــيقة. لأن تجارة الرقيق كانت لها أهميتها في حياة الغنى وفى حياة الفقير.

يمكننا القول بأن سيطرة ونفوذ تجار الرقيق قد تلاشت بعض الشيء في فترة الحكم الثنائي، ولكنها لم تتوقف تماماً، بل استمرت على المدى البعيد. وهذه الصورة الفوتوغرافية التي سجلها لنا (آرثر رايلى Arthur Riley) مــن "إرسالية الكنيسة في السودان" (CMS) عام ١٩٣٧ في يامبيو (Yambio) نرى فيها أن ظاهرة الإستعباد مازالت منتشرة حتى ذلك التاريخ، ولكنها في طريقها إلى الزوال.



شاهد عيان على تجارة الرقيق في السودان (في عهد الاستعمار)

وقد أعلنت المجموعة التي كانت تنادى باستقلال السودان بعد الحرب العالمية الثانية أن تجارة الرقيق قد انتهت وليس لها وجود إلاّ في خيال المستعمرين وخصوصاً المرسلين.

استعباد من الحرية

> **"إن قضية جنوب السودان إنما هي مسألة حياة أو موت. هي استعباد عنصري"**
> **(الأب ساترنينو ١٩٦٣)**
> **" هذه الحرب هي الحرب الأخيرة ضد الاستعباد"**
> **(الأسقف باريد تعبان- في أول اجتماع للجمعية العمومية لمجلس الكنائس السوداني الجديد، في توريت عام ١٩٩١)**

لم تكن تجارة الرقيق في السودان مجرد ذكرى تجول في أذهان المواطنين، كما أنها لم تكن مجرد قصة نحكيها عن إبراهيم عبد المسيح الذي قاسى العبودية بكل معانيها حتى نال حريته في المسيح.

تجارة الرقيق في السودان كانت هي " أبجديات الحياة " . فالمتحيزون لتجارة الرقيق لم يختفوا نهائياً بعد استقلال السودان في أول يناير ١٩٥٦. إنما كان الاستقلال هو إنهاء الحكم الثنائي الانجليزى المصري في السودان. وأصبحت السلطة في أيدي السودانيين في الشمال_ في أيدي الصفوة من المتعلمين والمحنكين الذين استمروا على نفس التوجه القديم الذي كان يحاول تعريب وأسلمة جنوب السودان، تارة بالقوة وتارة أخرى بالخداع. وكان الأب ساترنينو يسمّي هذا الموقف "بالاستعباد العنصري" ونتيجة لذلك حدثت انتفاضة في الجنوب. ومن ثم تأتى القصة الثالثة والرابعة_ وهما من القصص المليئة بالمتاعب لأنهما حدثتا في زمن مليء بالمتاعب. أنهما من القصص التي تشهد على مشكلة السودان، والتي يرفض السودان أن يتخلص منها.

القصة الأولى عن شهداء ملوط. وهى تحكى عن ثلاثة شهداء سودانيين يحكيها لنا واحد من المؤمنين بالمسيح الذي شاهد الأحداث مع شهود العيان- ولكنه لم يستشهد معهم _ وهو بول تشانق ووك.

الاستشــهاد شعار معروف لدى كل السودانيين، وخاصة لدى المسلمين منهم. فمنذ عام ١٩٨٩، عندما تولى الحزب الإسلامي الحكم في السودان، وكلمة الاستشهاد ظهرت على سطح الأحداث. فالحرب الأهلية تحولت إلى "الجهاد المقدس" حتى أن التليفزيون المحلى عرض حياة وشهادة الشهداء . كما أن صور الشهداء ملأت الشارع المؤدى إلى جامعة الخرطوم. المعروف أن الإسلام يبدأ بالشهادة. والمؤذن يؤذن يومياً في كل جامع معلنا " أشهد" وشهادته هنا للإسلام. والشاهد يشهد بإيمانه بصوته، أما الشهيد فيستشهد ويموت شهيداً لتمسكه العملي بإيمانه القوى. والمسيحيون أيضاً فيهم الشهداء ويموتون شهداء إيمانهم.

وقد بدأت قصة الاستشهاد في المسيحية في سفر إعمال الرسل بالشهيد استفانوس، وهو أول شهيد في المسيحية (أنظر أعمال ٧) فمات استفانوس بعد إعلانه لشهادته برسالة المسيح أمام رؤساء اليهود. وفى سفر الرؤيا نقرأ عن الشهداء حول العرش الإلهي في السماء (انظر رؤيا ٢٠: ٤) ويحكى لنا التاريخ الكثير عن شهداء ماتوا في سبيل تمسكهم وشهادتهم بإيمانهم بالمسيح. وفى تاريخ

الكنيسة نجد أن المسيحيين يكرمون الشهداء بل ويصلون لهم ولأجلهم لأنهم قدموا أنفسهم شهادة لإيمانهم. ولذلك تكرم الكنيسة القبطية في مصر شهداءها حتى أنها جعلت التقويم الكنسي هو تقويم الشهداء، كما جعلت المسيحية في الغرب التقويم المسيحي يبدأ بميلاد السيد المسيح. فنقول قبل الميلاد وبعد الميلاد. والمسيحية في السودان أكرمت الشهداء الذين ماتوا في سبيل شهادتهم وتمسكهم بإيمانهم بالمسيح.

وإذا كانت نفس الكلمة (شهيد) تستخدم في الإسلام. إلا أن الكلمة في الإسلام تحمل معنى آخر. فهي تعنى أيضا الموت أثناء الحرب دفاعاً عن الوطن. والمسيحي لا يكون شهيداً من وجهة نظر الإسلام إذا مات المسيحي في الحرب. انه مجرد مقاتل. ويقول الرب يسوع في هذا المعنى: "مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود" (يوحنا ١٨: ٣٦). فالمسيحية لا تعطى لقب شهيد لمن يموت في سبيل وطنه، أو لمن يجاهد في سبيل تحرير بلاده مهما كان جهاده ومهما كانت شجاعته ومهما بلغت قصة موته رهبة وقسوة. المسيحية تعطى لقب الشهيد لمن يتشبة بسيده يسوع المسيح " الذي إذ شتم لم يكن يشتم عوضاً. وإذ تألم لم يكن يهدد" (١ بطرس ٢: ٢٣).

أما القصة الأخيرة فهي تذهب بنا أبعد من ذلك. إنها قصة الأب ساترنينو. وهى لا تحكى عن استشهاد بقدر ما تحكى عن جريمة قتل لكاهن كان يقود التمرد بين فصائل الأنيانيا. كانت للأب ساترنينو رؤية خاصة بها يخدم بلاده وشعبه. فمع أنه تدرب واستعد ليكون كاهناً في خدمة الكنيسة، وقد خدم فعلاً ككاهن لمدة عشرين سنة، ولكنه تحرك مع دعوته ليعطى التوجيه السياسي لأبناء جنوب السودان. إن حياة الأب ساترنينو تستحق منا الدراسة بصورة أوسع. فقد جمع الأب ساترنينو بين مواهبه في النظام والتعقل. وفى داخله التزام قوى لخير شعبه. استطاع الأب ساترنينو أن يرى الموقف السياسي من وجهة نظر أبناء الجنوب، ولم يكن أبداً يخضع أو يرضى بأنصاف الحلول. كان النشاط السياسي عند بعض القادة من أبناء الجنوب هو مجرد إعلانات وشعارات جوفاء يأخذ مقابلها مركزاً عاليا بلا سلطة بجانب بعض الملحقات المالية المغرية. ولأن الأب ساترنينو يرفض كل هذا، فقد دفع الثمن من حياة الفقر والعوز، والمتاعب التي لانهاية لها، وأخيراً الموت قتلاً على الحدود اليوغندية.

في هذا القسم من الكتاب الذي أعطيناه اسم "استعباد من الحرية" اقتبسنا عبارتين. وكل من العبارتين جاءت على لسان كاهن كاثوليكي. وكل من الكاهنين من أبناء توريت. العبارة الأولى قالها الأب ساترنينو كتحذير من الاستعباد العنصري. والعبارة الثانية تنبأ بها الأسقف باريد تعبان عن ثقة ويقين وهو يقول: "هذه هي الحرب الأخيرة ضد العبودية والاستعباد" ولكن،هل تحقق ذلك؟ وهل كانت فعلاً آخر الحروب؟ هذه العبارة قيلت عام ١٩٩١، عندما كان جيش تحرير السودان من الثوّار (SPLA) يحقق تقدماً في احتلال الكثير من المواقع، جعل أبناء الجنوب يعتقدون أن الاستعباد الواقع عليهم وصل إلى نهايته. ولكنها نهاية ثبت أنها مجرد مراوغات حربية. واليوم، الكل يقول أن السودان في حاجة إلى ساترنينو جديد بنفس الانضباط ونفس الالتزام نحو شعبه، ونفس التكريس لربه وإلهه، ونفس محبته للمطحونين من أبناء وطنه ليقود السودان عبر الطرق الصعبة التي تصل به إلى بر الأمان والسلام.

وليم اندرسون

من كانت خدمته حرية حقيقية

قصة إبراهيم عبد المسيح (١٨٥٥ - ١٩٣٥)



بقلم : أندرو هويلر

ترجمة : زكرى رزق جيد

من كانت خدمته حرية حقيقية

قصة إبراهيم عبد المسيح (١٨٥٥ - ١٩٣٥)

تعتمد تفاصيل هذه القصة على ما سجله لنا جناب القس برنس ألبرت هاملتون(١) الذي كان مديراً لدار الكتاب المقدس بالخرطوم لأكثر من ٤٠ سنة في النصف الأول من القرن العشرين.

وكانت دار الكتاب المقدس، وما تزال إلى اليوم، تهتم بتوزيع الكتب المقدسة في كل بلاد السودان تحت اسم "جمعية الكتاب المقدس المتحدة بعد أن كانت أولاً جمعية الكتاب المقدس

---

١ برنس ألبرت هاملتون الذي سجل لنا قصة إبراهيم عبد المسيح، كانت له أيضاً قصة غريبة، فقد ولد في نهاية القرن التاسع عشر في جويانا البريطانية، وأجداده من العبيد الذين أخذهم تجار الرقيق من جنوب إفريقيا من ٢٠٠ سنة مضت. ولما قامت الحرب العالمية الأولى، التحق بالجيش تحت قيادة جنرال النبي في فلسطين. وهناك أحس بالدعوة للخدمة المسيحية في أفريقيا، الأرض التي عاش فيها أجداده. ولما انتهت الحرب لم يرجع إلى بلاده (التي زارها بالتأكيد مرتين فيما بعد)، وقدم نفسه لجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية. ثم تزوج مصرية من أسوان. وجاء إلى الخرطوم حوالي عام ١٩٢٠ ليدير العمل في جمعية الكتاب المقدس. واستمر في عملية توزيع الكتب المقدسة حتى عام ١٩٦٦ حيث بلغ سن التقاعد وسافر إلى إثيوبيا ليعيش هناك. وامتدت إقامته في الخرطوم حتى رأى نشأة الأندية وبيوت الضيافة لاستقبال الوافدين من جنوب السودان. شاهد نجاح الدارسين للغة العربية في كاتدرائية جميع القديسين بالخرطوم. وكان هذا أول عمل منظم للمسيحيين من السودانيين من الشمال والجنوب تقوم به الكاتدرائية.

البريطانــية والأجنبــية". هذه الدار، كان لها الأثر الكبير في قصة إبراهيم عبد المسيح.

ففــي عــام ١٩٥٤ زار جيمس روى مدير "جمعية الكتاب المقــدس البريطانــية والأجنبية" فرع الجمعية في الخرطوم، وهناك تركّــز نظره على صورة تصفية لرجل سوداني معلقة على الحائط. ولمــا ســأل عــن قصة هذه الصورة حكى له القس هاملتون قصة غريــبة جــداً. وقــد نشــرت هذه القصة في كتاب صغير من ١٥ صــفحة فقــط عــام ١٩٥٩ تحت عنوان: "من كانت خدمته حرية حقيقية: قصة إبراهيم عبد المسيح".

عــرف القس هاملتون تفاصيل هذه القصة من حوار طويل بينه وبيــن إبراهيم عبد المسيح قبل٢٥ سنة - أي، حوالي عام١٩٣٠- قــبل مــوت إبراهــيم عبد المسيح بوقت بسيط، وكان عمره حينئذ حوالــي٨٠ ســنة. ومــع أن القصة مكتوبة بأسلوب واضح وجميل جــداً، لكــن تنقصــها المعلومــات التاريخية مثل الزمان والمكان، والبيانات التي يهتم بها من يكتب التاريخ.

- قــد يكــون الســبب في نقص المعلومات أن الكاتب اهتم فقط بتقديم المثَل الحي للحياة المكرسة للرب ...
- وقــد يكــون السبب هو نسيان الكاتب للتفاصيل التي مضى علــيها أكثر من٢٥سنة، فهو يذكر القصة جيداً ولكنه ينسى البيانات التي ضاعت مع الزمن.

ويقــدم لــنا القــس هاملتون في هذه القصة صورة الوضع في السودان بينما عبد المسيح يحكى له قصته من واقع السنوات الطويلة التي قضاها في الخرطوم، فكتب يقول:

ربمــا تــندهش عندما ترى أنني أتذكر الكثير من تفاصيل القصة، وأنــا ذاتــي مندهش، ولكني كنت شخصياً في اهتمام شديد بهذا الرجل إبراهيم الذي كان أبونا كلنا في دار الكتاب المقدس، وحاولت أن أكتب القصة كما حكاها لي إبراهيم منذ ٢٥ سنة لنرى كيف كانت إفريقيا في عهده. وكيف كانت قبيلته، وكيف كان إبراهيم رجلاً فريداً من نوعه .

يجد كاتب التاريخ نفسه هنا في حيرة وألم. لأن سنوات تلك الفترة طويلــة بــلا تــاريخ فلم نجد أياً من البيانات الشخصية التي كان من

الممكن أن تربط هذه القصة برباط قوى مع أحداث أخرى فى التاريخ السوداني(٢). ومع ذلك تعتبر هذه القصة مساهمة حية لمعرفة الجذور الأولى للمجتمع السوداني المسيحي في العصر الحديث، مهما كانت صورة الحياة في القرن التاسع عشر مشوشة وغير واضحة. من الأشياء المفقودة بسبب التغيرات التاريخية والانتقال من عصر إلى عصر هو أننا فقدنا الاسم الحقيقي لإبراهيم عبد المسيح– فالقصة تقدمه بهذا الإسم الذي اختاره هو وقت المعمودية. ولكننا نعلم أنه ولد حوالي عام ١٨٥٥ في فصيلة الافونجارا، وهى الفصيلة الراقية والحاكمة لشعب قبيلة الزاندى في زميو على حدود السودان مع أفريقيا الوسطي. ويقول القس هاملتون أن إبراهيم كان ابن سلطان لافونجارا، فالحدود السياسية المعروفة اليوم لم يكن لها وجود في القرن التاسع عشر طبعاً – على الأقل بالنسبة لتجار الرقيق والعاج الذين خرّبوا هذه المناطق في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر. وشهدت أراضي الزاندى في حوض نهر الكونغو أصعب حملات تجار العاج

[٢] لم نجد أي معلومات أخرى تخص إبراهيم عبد المسيح في قسم سجلات جمعية الكتاب المقدس المتحدة في مكتبة جامعة كامبردج.

والرقيق ، التي تحركت من الخرطوم على نهر النيل جنوباً إلى بحر الغزال، ولم تجد مقاومة من القبائل الصغيرة التي تسكن جنوب قبيلة الدنكا، المشهورة بشجاعتها ومقاومتها، قبل أن تصل الحملة إلى الغابات الكثيفة في أراضى الزاندى.

والمعروف عن شعب الزاندى أنهم رجال حرب وقتال، بلغت قوتهم حداً كبيراً بعد أن سيطروا على شعوب كثيرة في منطقة حوض نهر الكونغو، ولكن قوتهم وشجاعتهم لم تتمكن من مقاومة حملات التجار العرب المسلحين بالبنادق، كما أن بعض الأهالي من الزاندى تطوعوا لمساعدة البازنجرز الذين رافقوا التجار في حملاتهم.

كان (٣) الزبير ود رحمة منصور من أكبر وأهم قادة الحملات الحربية لجمع الرقيق، وهو من قبيلة الجعليين، وقد استطاع أن يسيطر على مديرية بحر الغزال، والأقاليم الواقعة إلى الجنوب في الفترة من ١٨٦٠– ١٨٧٠. ويسجل لنا القس هاملتون (٤) أنه في واحدة من

[٣] هولت ب.م/دالى م.و. "تاريخ السودان من دخول الإسلام إلى اليوم". الطبعة الرابعة / لندن ، ١٩٨٨ ص ٧١.

[٤] لمعرفة تاريخ هذه الفترة ودور الزبير فيها: انظر نفس الكتاب المذكور أعلاه ص٧٠ إلى ٨٠

حملات الزبير المسلحة على منطقة زميو، وقع في أيديهم أمير الزاندى الشاب الذي لم يكن عمره يزيد عن ١٢ سنة. وكان ذلك حوالي١٨٦٧ أو ١٨٦٨ – أي قبل محاولة الخديوي إسماعيل باشا لوقف تجارة الرقيق بعد أن فشل في وضع الزبير تحت سيطرته – فعيّنه حاكماً لمديرية بحر الغزال. ويسجل لنا القس هاملتون أقوال ومشاعر إبراهيم عبد المسيح نفسه بعد مرور ما يقرب من ٧٠ سنة على تلك الأحداث:

"وقبل نهاية اليوم، كانت منطقة زميو قد تحولت إلى خراب ودخان. ثم جمعوا الأحياء في مجموعات مربوطة بالحبال، وشحنوهم إلى الشمال وباعوهم في سوق العبيد. وكان فيهم الأمير الصغير الذي لم ينس ذلك اليوم. حتى في سن الثمانين كان يتذكر بألم صرخات أخته والدموع تغطى وجهها وهى مربوطة في مجموعة أخرى – والتي لم يراها أبدأ بعد ذلك اليوم". (٥)

وبدأ إبراهيم رحلة العذاب والقيود والضرب والجوع والمشي آلاف الأميال في الغابات والمستنقعات في الجنوب، ثم حرارة الجو في

---

[٥] هاملتون ب.ا " من خدمته كانت حرية حقيقية " : قصة إبراهيم عبد المسيح . لندن ١٩٥٩ ص ٢ .

مناطق السافانا الجافة في كردفان، حتى وصلت مجموعة العبيد إلى أم درمان.(٦) وكان خديوي مصر محمد سعيد باشا قد أمر بقفل سوق الرقيق في الخرطوم في عام ١٨٥٤، ولكن كان من المستحيل قفل الحدود مع مصر أمام حركة تجارة الرقيق– لذلك بعد استراحة قصيرة من متاعب المشي الطويل– واصل إبراهيم ومن معه رحلة عذاب أخرى شمالاً مع النيل حتى وصلوا السوق الكبير لبيع العبيد في المنيا التي تقع جنوب القاهرة بمسافة قصيرة نسبياً.

وباعوا إبراهيم. باعوه لأحد التجار المسيحيين الأقباط. وأصبح ابن سلطان الافونجارا وأميرها يعمل خداماً في بيت التاجر الذي اشتراه، ولم يكن يعرف الكلام العربي ولكنه تعلم اللغة – تعلمها جيداً جداً – إلا أنه كان ينطق الكلمات بلهجة الأجانب (٧).

---

[٦] مدينة أم درمان التي تقع على الشاطئ الغربي للنيل مقابل مدينة الخرطوم. لم تكن في صورتها الحالية في عصر ما قبل المهدية. وكان الخديوي محمد سعيد باشا قد أمر بقفل سوق الرقيق بالخرطوم. وحاول قفل الحدود بين السودان ومصر أمام حركة تجارة الرقيق. غير أن هذه الخطوات لم تنجح تماماً. فأصبحت منطقة كاكا في بلاد الشلك هي السوق الرئيسي لتجارة الرقيق في السودان، مع استمرار نقل الرقيق إلى مصر. راجع كتاب هاملتون.

[٧] نفس كتاب هاملتون ص ٣

واستمر إبراهيم يخدم في ذلك البيت لمدة ثلاث سنوات - ثم عينه التاجر وكيلاً على بيته. فأصبح إبراهيم هو المسئول عن شراء الطعام وتدبير احتياجات البيت مع الإهتمام بالمواشي التي كان التاجر يقوم بتربيتها والتجارة فيها. وبدأ إبراهيم يدرك حقيقة التدين عند الشعب المصري ومكان الدين في حياته، وأثره على المجتمع من مسلمين ومسيحيين. وانجذب في البداية إلى الإسلام، ربما - كما يقول القس هاملتون- لكي يرضى التاجر الذي اشتراه أو أن يعفي من المسئولية. فلم يكن التاجر يهتم بتغيير عبيده من الوثنية ليكسبهم للمسيحية.

وتقول القصة أن إبراهيم صام رمضان في السنة الأولى بعد أن أسلم. وفي السنة الثانية شارك في احتفالات المولد النبوي الشريف (عيد ميلاد النبي محمد). ولكنه شعر بخيبة أمل في الإسلام بعد وقت قصير- بعد أن لاحظ أن التعاليم التي يفهمها لم تشبع رغباته الكثيرة بعد صيام رمضان، ولم يشعر براحة داخلية. فكيف يقول المسلم أنه مسلم وهو يرى تصرفات بعض المسلمين حوله على عكس ما ينادى به الدين؛ بعد هذه الاختبارات والتجارب، لم يشعر إبراهيم أنه قادر على الاستمرار في الادعاء بأنه مسلم بعد الشعور بالفشل. فضحكوا

عليه بإحتقار وقالوا: هذا أمر غير مهم، فما أنت يا خدام إلا عبد وثني جاء من أواسط إفريقيا فأنت لست بالمسلم الحقيقي". (٨)

ويسجل القس هاملتون بأن إبراهيم مع كل هذه المعطلات، كانت له رغبة قوية ليكتشف الدين الذي يمكن وصفه بأنه دين "الحق والنقاء"، الدين الذي يمكن أن يأخذه معه عندما يعود إلى شعبه في بلاد الزاندى، فالتفكير أو الإحساس بالرغبة في العمل المرسلى كان أمراً بعيد الاحتمال بالنسبة لإبراهيم في ذلك الوقت على الأقل. لأنه بعد عدة سنوات سمع عن عبد مثله حصل على حريته ويعيش في إنجلترا واسمه (سالم ولسون) شعر بنفس الرغبة للعمل المرسلى، وقام بمحاولة كبيرة للعودة إلى منطقة بحر الغزال عن طريق ما كانوا يسمونه "ولاية بلجيكا الحرة في إفريقيا" وهى الكونغو حالياً.

والعبيد الذين حررهم الأسقف دانيالى كمبونى بتشجيع وتمويل من إرسالية كمبونى، ثم أعادهم إلى قبائلهم وشعوبهم للتبشير بالإيمان الجديد. ولكن- في مصر- في أواخر القرن التاسع عشر، لم يكن من حق العبيد أن يمارسوا أو يعبّروا عن أي دين من

---

[٨] هاملتون نفس المرجع ص ٤

"الأديـــان الســـماوية" خصوصاً إذا كان العبد مملوكاً لسيد مسيحي.
ومع أن إبراهيم لم يجد أي تشجيع من سيد البيت الذي يعمل فيه، إلا أنه بدأ يسأله عن تعاليم الإيمان المسيحي عن طريق حضور بعض اجتماعات الكنيسة القبطية. وهنا بدأ يشعر بتقدير للمواعظ التي كان يستمع إليها. وبدأ يشعر بالسلام. ولما ذهب إلى كاهن الكنيسة يطلب المعمودية، وافق الكاهن في الحال مفترضاً موافقة سيد البيت الذي يعمل فيه إبراهيم خصوصاً وأنه كان عضواً بارزاً في الكنيسة.

لم يكن لإبراهيم اسما يعرف به كل سنوات خدمته في بيت التاجر الذي اشتراه. وصار عليه الآن أن يختار الاسم الجديد على أن يكون من الأسماء المسيحية. وكان أول اسم فكر فيه هو اسم سيده الذي يخدم في بيته وهو "إبراهيم" كما أنه فكر أن يكون اسمه الثاني هو "عبد المسيح" لأنه أراد أن يكون عبداً للمسيح. فأصبح اسمه "إبراهيم عبد المسيح" ويمكن تحديد تاريخ تجديده ومعموديته بالتقريب حوالي ١٨٧٢.

لكن لما تسربت أخبار التجديد والمعمودية داخل البيت الذي كان يعمل فيه، شتموا الكاهن الذي عمّده، وضربوا إبراهيم لأنه تجاسر وطلب المعمودية– وتجاسر أكثر وسمى نفسه على اسم سيده– ثم

سجنوه في البيت، ولم يقدموا له طعاماً إلا الخبز والماء لمدة ثلاثة أيام. ولم يسمح لأحد أن يزوره إلا شيخ الجامع الذي كان يقرأ له القرآن في محاولة أخرى لكسبه للإسلام. إلا أن إبراهيم تمسّك بإيمانه، وأعلن الشيخ فشله.

لاحظ إبراهيم بسرعة أنه لكي يتعرف ويتعلم عن إيمانه الجديد، عليه أن يعرف القراءة. لذلك وللمرة الثانية، حاول سراً مع أحد الفقراء كان يأتي ليأخذ إحساناً من سيد البيت، فطلب منه أن يعلمه القراءة مقابل وجبة طعامه. وفعلاً بدأ الرجل الفقير يعلمه العربي. وقدم له واحداً من الأناجيل. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتقابل فيها إبراهيم مع الكتب المقدسة. ولكن كما حدث بعد المعمودية: ضربوا إبراهيم مرة أخرى لأنه تجاسر وأمسك بالإنجيل.

من البداية كان إبراهيم مبشراً، خصوصاً بعد أن عرف الجميع عن إيمانه وتحققوا من قدراته، فأدرك التاجر سيد البيت أنه من الصعب الاحتفاظ بإبراهيم أكثر من ذلك. فلم يعد يصلح أن يبقى مع باقي العبيد. و وجد نفسه مجبراً لأن يعطى إبراهيم

حريــته ليــبعده عن بيته وبدأ إبراهيم يعمل بالأجرة في الحقول والمزارع المحيطة بالمنطقة.

وقــد أعطــاه هذا العمل حرية أكبر ليبشّر بالإنجيل بالرغم من القيود التي كانت تمنع التبشير في المجتمع المصري. وكانت طريقة إبراهــيم أن يجمع العمال ليقرأ لهم بالعربي من كتاب العهد الجديد حتى أن العمال والمزارعين سمّــوه "العبد المبشر"

وشــعر إبراهــيم بالحاجة للتعليم، واستطاع أن يدخل مدرسة من مدارس الإرساليات . وكان يدفع مصاريف دراسته من أجرته اليومية، لكــنه قاســى الكثــير في تلك المدرسة خصوصاً من زملاء الدراسة، ومعظمهم من الأقباط المتعصبين الذين لم يعجبهم أن يروا العبد الأسود يــتكلم عربي ويقول أنه مسيحي. فترك المدرسة، خصوصاً وأن أجرة عملــه لم تكن كافية لسد مصاريف دراسته. إلا أن مشاعر الاضطهاد والكراهــية العنصرية التي لاقاها في المدرسة تركت آثارها في نفسه طول بقية سنوات عمره. ومع يأسه وعجزه أن ينال ما يريد من تعليم، عاد مرة أخرى للعمل في الحقول والمزارع، متنقلاً من قرية لأخرى ،

يعمــل بالنهار– ثم يجمع الناس في المساء ليقرأ لهم من الكتاب المقدس مع الشرح. وهنا يقول القس هاملتون:

"فــي كثــير مــن القرى المصرية (في الستينات) تجد كنيستين أو ثلاثــة، بيــنما قــرى أخرى كثيرة سمعت بالإنجيل لأول مرة من هذا المبشر المتجول: إبراهيم عبد المسيح" (٩)

هــذا أمــر عجيب ومثير للمشاعر في هذه القصة التي تدور حول شــاب مــن الزاندى (عمره الآن حوالي الثلاثين عاماً) كان من العبيد الرقــيق، بــلا تعليم يذكر، ويعيش وسط جو من الكراهية والعنصرية، ومــع ذلك ينتقل من قرية إلى أخرى يبشر، وبالتبشير مهّد لقيام كنائس تذكر اسمه وعمله حتى وقت كتابة القصة في الخمسينات بعد٦٠ أو٧٠ ســنة. ونحــن نتصــور أن شهادة إبراهيم عبد المسيح وما قام به من تبشير، كان بين عمال المزارع والحقول في القرى المسيحية في مصر وجميعهم من الأقباط. ولأن تبشيره كله كان يعتمد على قراءة الإنجيل، فيمكــن القــول أن رسالته كانت رسالة إنجيلية، وأن جماعة المؤمنين

---

٩ هاملتون : نفس المرجع ص ٩

التـــي كانـــت تجتمع في تلك القرى هي التي انضمت أولاً إلى الكنائس المشـــيخية فـــي مصر (١٠) وتتحرك مشاعرنا بالتأكيد نحو رجل غير عادى، له شخصية قوية، يتصرف بكل العزة والكرامة (والصورة تدل على ذلك). رُجل بشجاعته، قدم رسالة الإنجيل بثقة وبساطة واستقامة، فربح للإيمان عدداً من العمال والمزارعين الذين كان يعمل بينهم حتى بعد أن احتقروه ورفضوه."

ولـــذا لـــم يكن غريباً أن يهتم المرسلون من الكنيسة المشيخية أو الكنيســـة الأســـقفية بهذا المبشر النشيط، فضمّوه معهم في الخدمة. وتم زواجـــه في القاهرة من شابة إثيوبية في عام ١٨٩٥ أو ١٨٩٦. إلا أن الـــزواج لـــم يدم طويلاً بسبب اختلافات حول المستقبل: فالزوجة تريد العـــودة إلى إثيوبيا بينما الزوج يريد الاستمرار في عمله التبشيري في مصـــر، وربما يحلم بالعودة إلى بلاده التي ولد فيها. ولم يتم أي اتفاق

[10] المعروف أن الكنيسة الإنجيلية في مصر كانت إحدى ثمار عمل الإرسالية الأمريكية (للكنيسة المشيخية) وهى نفس الإرسالية التي دخلت السودان عام ١٩٠٠ في شخص القس (كيلى جفن) والذي بدأ العمل عام ١٩٠٢ في دوليبهل الواقعة على نهر السوباط بين قبائل الشلك. فالكنيسة المشيخية في جنوب السودان والكنيسة الإنجيلية المشيخية في الشمال، كلها بدأت بعمل الإرسالية الأمريكية في السودان.

بيـــن الزوجين على مكان لحياتهما معاً حتى بعد أن أعطاهما الله طفلاً أسمياه "نوح".

كانت نقطة التحول الفاصلة في حياة إبراهيم عندما طلب منه القس قويـــن ودكتور هاربر أن يذهب معهما إلى الخرطوم في عام ١٨٩٩، بعـــد ســـقوط المهدية في السودان في موقعة كررى عام ١٨٩٨ لكي تحقق جمعية إرسالية الكنيسة المعروفة (C.M.S) وعدها الذي تعهدت بـــه بعـــد مقـــتل الجنرال تشارلس غوردون على سلالم القصر الحاكم بالخـــرطوم عام ١٨٨٥، بأن تقيم في السودان شاهداً للمسيحية وتذكاراً لغوردون بين الناس الذين قتلوا هذا البطل العظيم. كان القس قوين من الأعضـــاء المؤسســـين لإرسالية إحياء ذكرى غوردون وهذا سهّل له الحصـــول علـــى تصـــريح لدخول السودان عام ١٨٩٩ ومعه دكتور هاربـــر الـــذي أسس مستشفى الإرسالية في مدينة منوف في دلتا نهر النـــيل، وكـــان ضمن المسافرين معهم المبشر الزاندى النشيط. وصل القس قوين مدينة أم درمان قبل عيد ميلاد المسيح بقليل وكان لوصول إبراهـــيم أرض الوطـــن المعنى الكبير. فهذه هي مدينة أم درمان التي تركها آخر مرة وهو عبد مربوط مع باقي العبيد بالسلاسل من قبل٢٧

سنة، وها هو يعود إليها حراً. وكان لابد من العودة إلى مصر مرة أخرى ليأتي بزوجته وابنه مع كل ما يملك من أشياء صغيرة. وهنا يقول القس هاملتون:

"ترك إبراهيم السودان كعبد من سنوات ماضية، وها هو يعود إلى السودان وهو يملك حريته، ولكنه يعتبر نفسه عبداً من نوع جديد- فهو يعتبر نفسه عبداً وخادماً للمسيح".(١١)

كانت العودة إلى السودان قاسية وفاشلة بالنسبة لإبراهيم، فلم يكن في إمكانه السفر من الخرطوم إلى جنوب السودان بسبب غياب الأمن وعدم الاستقرار بعد سقوط دولة المهدية في السودان ومحاولة وضع السودان تحت الحكم الإنجليزي لبريطانيا. والحقيقة أن إبراهيم لم يتمكن من العودة إلى شعبه الزاندى طول حياته. وأصبح إبراهيم في وضع سيئ جداً، فالحياة في الخرطوم بالنسبة له كانت قاسية، وأحواله المالية غير كافية، وزوجته متمسكة بالسفر إلى بلدها في إثيوبيا مع أنها كانت حبلى في طفلها الثاني. وهكذا قاسى إبراهيم حياة الحزن والألم بسبب أمور بقيت معه طوال حياته: الأمر الأول، سوء المعاملة

[11] هاملتون : نفس المرجع ص ١٠.

والتمييز العنصري والاجتماعي التي لاقاها في مدرسة الإرسالية في مصر. والأمر الثاني، ابتعاد زوجته عنه بعد أن تركته مع ابنه نوح في الخرطوم. كانت مقدرة إبراهيم محصورة في الزراعة والتبشير. ولم تقدم له الخرطوم أي مجال ليستخدم فيه هذه القدرات، وحتى يعيش هو وابنه إشتغل عامل طرق ومباني حول مدينة الخرطوم. وقد ساعده هذا العمل في التعرف على مبنى دار الكتاب المقدس الجديدة في الخرطوم وكان يديرها يهودي من مصر صار مسيحياً. كان عمل هذه الدار توزيع الكتب المقدسة و الأناجيل في السودان. وبعد أسابيع قليلة كان إبراهيم يعمل في هذه الدار كموزّع متجول للكتب المقدسة. واستمر يمارس هذا العمل لأكثر من ٣٠ سنة حتى وفاته في عام ١٩٣٥. ومع أنه سافر إلى أماكن كثيرة لبيع الكتب المقدسة، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى مكان شعبه في بلاد الزاندى ولا مكان زوجته في بلاد إثيوبيا.

التاريخ الشخصي لإبراهيم:

- العبد الوثني
- المجرب لتعاليم الإسلام

- المبشر في مصر

كلها تجارب وخبرات أعطته اهتماما عميقاً بالإسلام والقرآن، فأصبح معروفاً عند كثير من المسلمين في الخرطوم وأم درمان. وكانوا يدعونه للمناقشة والحوار حول الأديان. وسكن مع مدرس مسلم لعده سنوات. فكانت فرصة لمقارنة ما جاء في الكتاب المقدس مع ما جاء في القرآن الكريم. وهكذا أصبح إبراهيم الرجل الذي علم نفسه ليكون معلماً للكتاب المقدس. كتب إبراهيم نبذه أو كتيباً صغيراً في محاولة منه لشرح عقيدة الثالوث الأقدس للمسلمين ووجد استحسانا وتأثيراً كبيراً في العاصمة. ولكثرة اهتمامه بالكتاب المقدس، وباللغة العربية، وبالإسلام، فكّر في أن يدرس اللغة العبرية للكتاب المقدس عند أحد المعلمين اليهود.

ويقول هاملتون أن إبراهيم قد أصبح أستاذاً للغة العبرية!

يذكر القس هاملتون قصة حكاها له إبراهيم أكثر من مرة، والتي تبين وتجذب الانتباه بقوة إلى شيء ما في شجاعته والنعمة الإلهية التي تقوده. هذا بجانب التفتح واللطف في حواره الديني المتميز في وقت

مبكر. كما أن حسن مداعباته وقوة احتماله بلا شك لعبت دوراً كبيراً في القبول والترحيب الذي لقيه من الجميع.

كان إبراهيم طويل القامة– ٦ أقدام– وكانت تقاطيع وجهه تدل على أنه من الأمراء– أمراء الافونجارا. كان يلبس الملابس البلدية المصرية – القفطان والعباءة، وعلى رأسه العمة السودانية.

"كنا في نهاية موسم الحج عندما جاء شخص مشهور من غرب إفريقيا وسكن بجوار مبنى دار الكتاب المقدس بالخرطوم. وكان قد عاد من مكة المكرمة ويستعد للسفر إلى بلاده. كان الحاج يحمل معه قطعة من كسوة الكعبة الشريفة التي تعوّد المسلمون إرسالها لتغطية الحجر المقدس الذي يسعى إليه عدد كبير من المسلمين في الخرطوم.

وفكر إبراهيم أن يذهب إلى الحاج ليبيع له الكتاب المقدس. ووجد نفسه يجلس مع باقي الضيوف على الأرض بينما كانوا يمررون قطعة من كسوة الكعبة وسط صرخات الإعجاب حتى عادت مرة أخرى إلى صاحبها. وهنا وقف إبراهيم وقال بصوت عال: "يا حاج، أرى أنك من العلماء. معي هنا الكتب المقدسة الثلاث: التوراة والأنبياء، والإنجيل وكلها جاءت من عند الله ." وسكت الجميع. ثم تحدث الحاج بوقار:

"وهل معك هذه الكتب المقدسة بالعربي؟" وقدم إبراهيم الكتاب المقدس. ودفع الحاج ثمن الكتاب وهو يقول :"أنا الآن أكملت فريضة الحج. فمعي الكتب المقدسة الثلاث بجانب القرآن الكريم. وأشكرك . فهذه الكتب ستكون بركة عظيمة لي وكنزاً أعتز به مع باقي ثروتي."

استمر إبراهيم عبد المسيح في العمل كموزع متجول للكتاب المقدس حتى آخر أيامه تقريباً. ولم يكن موزعاً فقط، بل كان يهتم بجلسات الحوار مع المسلمين في الخرطوم وأم درمان. وجاءت لحظة الفرح لإبراهيم عندما تقابل مع أحد المرسلين من إرسالية إفريقيا الداخلية، وأخبره أن رسالة الإنجيل قد وصلت إلى شعبه الزاندى في زميو، وأن عدداً كبيراً من الزاندى في زميو يذكرون حملة الزبير على بلادهم، وكيف مات السلطان، وكيف أخذوا ابنه الأمير مع باقي الأحياء كعبيد ورقيق. ولأن إبراهيم لم يستطع الذهاب إلى شعبه، بسبب كبر سنه ومتاعب السفر، فقد أخذ ذلك المرسل معه صورة مكبّرة لإبراهيم- نفس الصورة التي نجدها هنا. أخذها إلى أهله وشعبه في زميو.

ونقول بصدق أن اتصال إبراهيم بشعبه عن طريق المرسل الذي يعمل في بلاد الزاندى، وإن كان الاتصال غير مباشر، لكنه كان خاتمة لحلقة الحياة ، بعد أن وصل إبراهيم إلى سن الثمانين مستمراً في الخدمة. ولو أن الضعف قد ألزمه الفراش في مستشفى (C.M.S) الإرسالية في أم درمان. فرقد في ١١ نوفمبر ١٩٣٥ وهو يمسك كتابه المقدس بين يديه.

حراس تابوت العهد



بقلم: مايكل باركر
ترجمة : زكرى رزق جيد

حراس تابوت العهد

بقلم : مايكل باركر
ترجمة : زكرى رزق جيد

في منطقة الجريف الواقعة جنوب الخرطوم، وفى منزل كبير قديم ومـــتهدم، كانت تسكن عائلة يزيد عدد أفرادها عن مئة شخص، مع أن المكان لا يتسع إلا لسكن عشرة أشخاص أو أقل. لذلك نجد البيت ملآن بالحـــركة: النساء في حديث مستمر، والأطفال يلعبون هنا وهناك، أما الـــرجال فيعملون في شوارع الخرطوم الفقيرة كباعة متجولين يعيشون على رزقهم اليومي من هذه الأعمال البسيطة.

وســـط هـــذه المجموعة الفقيرة، كان يعيش عبد الله شاه الدين رب هـــذه الأسرة الكبيرة، الذي كان الجميع ينادونه (أبونا عبد الله)، يجلس في مكانه المعروف في حوش البيت القديم على (عنقريب) سرير مجلد بالحـــبال، جالســـا في سكون وهدوء. وإذا تكلم، فبكل اللطف والصدق

والالتزام مع الجميع. ولما كانت متاعب العمل كثيرة، و الحياة فيها صعوبة أكثر، إلا أن ثقة عبد الله في نفسه، وإيمانه القوى بإلهه الطيب معه، لم يهتزا أبداً. لذا كان عبد الله موضع احترام من الجميع، يحلم أحلاماً، ويرى رؤى، ويتكلم بكل شجاعة عن إلهه الذي سار معه وسلك في طريقه كل أيام حياته التي قاربت ٦٨ عاماً.

والسودان بلد كبير مسلم. نجد فيه أحياناً بعض الأفراد هنا وهناك، يتحملون سوء معاملة المجتمع لهم. ويقاسون بعض الإضطهادات، لأنهم أرادوا أن يكونوا من أتباع يسوع المسيح، ولكن يندر أن تجد عائلة بكاملها أو قبيلة بجميع أفرادها يدخلون إلى المسيحية، حتى عندما وصل النفوذ الغربي إلى السودان، ودخلت الإرسالية المسيحية التبشير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، انحصر عملها في جنوب السودان فقط: إقليم لا يسكنه العرب المسلمون، بل عناصر إفريقية لها دياناتها القومية أو الوثنية. والاستثناء الوحيد في هذا السجل المظلم للتبشير في السودان نجده في قصة عبد الله وأسرته.

القصة التي إذا قيمناها بالمقاييس الغربية، نجدها قصة غريبة من نوعها. مليئة بروايات الأحلام والرؤى والنبوات، أحداثها غير عادية

والاضطهادات فيها لا يصدقها العقل، حتى وهم يبحثون عن تابوت العهد المفقود.

من أورشليم إلى جرعاد

تقول الأسرة أن جذورها ترجع إلى أكثر من أصل ومصدر ومكان. إلا أن المجموعة التي تعيش في السودان نجدها في قرية ريفية اسمها (جرعاد) في ولاية كردفان حيث يعيشون في بيوت من القش تسمى (ركوبة) أو (قطية) ووسائل الانتقال عندهم بالمشي على الأقدام أو بواسطة الجمال والحمير، مع أن بعض اللوارى المسطحة بدأت تنقل الركاب من قرية إلى أخرى. ولأن هذه المنطقة تبعد كثيراً عن النيل، فهم يعتمدون على مياه الآبار في الشرب والنظافة، وعملهم الرئيسي هو رعى الماشية في أرض شبه صحراوية طول العام، إلا عندما تسقط الأمطار في الفترة من مايو إلى أغسطس، فيكون من الممكن زراعة المحاصيل الدورية مثل الذرة والسمسم والفول السوداني. وقد اشتهرت هذه المنطقة بزراعة نوع من البطيخ الكبير الحجم المميز في الطعم تراه ممتداً على أرض غريبة التربة ولكنها عجيبة في العطاء.

استمرت حياة أهل قرية جرعاد بنفس الصورة التي عاش عليها أجدادهم عدة قرون بلا تغيير. فلم يكن فيها اتصالات حديثة، ولا مواصلات للسفر، ولا مدارس للتعليم، ولا يعرفون استخدام الآلات الزراعية المتقدمة، وتنعدم عندهم أبسط الخدمات مثل الكهرباء وتوزيع المياه، حتى الدين في هذه القرى لم يكن قد وصل إلى الفهم الصحيح. فالمسلمون وهم الأكثرية مسلمين بالإسم فقط. وبقية السكان لا يعرفون شيئاً عن اليهودية أو المسيحية. فهم يخلطون تعاليم الإسلام مع تقاليدهم الوثنية والخرافات التي توارثوها في مجتمعهم القبلي غير المتعلم والبعيد عن كل الحقائق الدينية المعروفة في العالم الخارجي. لذلك تلعب الأحلام والرؤى دوراً كبيراً في حياة المجتمع المحلى في هذه القرى.

سكان قرية جرعاد جزء من قبيلة (الهوارة) والتي ظهرت أساساً في بلاد اليمن حسب التقليد المعروف. ولم يصل الهوارة إلى السودان إلا في القرن السادس عشر. ومع أن كلمة (هوارة) كلمة عربية إلا أن بعض أهالي هذه القبيلة يعتقدون أن الاسم مشتق من كلمة (هور) اليهودية. فتكون كلمة هوارة مأخوذة من اسم جبل هور الذي دفن فيه هارون الأخ الأكبر لموسى النبي.

ينتشر شعب هذه القبيلة في أماكن كثيرة، وبأسماء متعددة. إلا أن المقيمين منهم في السودان وليبيا وجنوب مصر واليمن يعرفون باسم الهوارة. ويعتقدون أنهم من سلالات الشعب اليهودي. ويرجعون نسبهم الأول إلى الملك سليمان وملكة سبأ. وقصتهم حول هذا النسب تتشابه مع قصة (ميمون) التي يحكيها التقليد الأثيوبى. فهم يقولون أن الملك سليمان تزوج من ملكة سبأ وأنجب منها ابنا أسماه داود (ميمون الإثيوبي)، وأن سليمان كان يرى بعين المستقبل أن الله سوف يعاقب مملكة إسرائيل لعدم أمانتها مع الرب، وأنه لكي يحافظ على نسله الملكي من بعده، حتى ولو خارج إسرائيل، فكر في أن يرسل ابنه داود مع أمه ملكة سبا عند عودتها إلى بلادها في اليمن. وسلمه أشياء كثيرة يريد المحافظة عليها، عندما يعم الخراب مملكة إسرائيل. وأهم تلك الأشياء التي سلمها له: تابوت العهد. وقالوا أن الملك سليمان أمر بعمل نسخة أخرى من تابوت العهد لتأخذ مكانها في قدس الأقداس في الهيكل بأورشليم، مع أن الكتاب المقدس يؤكد وجود تابوت العهد في مكانه في الهيكل حتى فترة حكم الملك يوشيا ملك يهوذا في القرن السابع قبل الميلاد (٢ أخبار الأيام ٣٥: ٣).

بعد عودة داود بن سليمان إلى اليمن، أخذ معه سبعة رجال، ودفنوا تابوت العهد في مكان يليق به، وأخبر الناس أنه يدفن الكفن

الذي يضم جثمان جده. وأكد على شعبه أنهم في حالة الرحيل من هذه البلاد لأي سبب من الأسباب، فعليهم أن يأخذوا هذا الكفن معهم.

تتابع على عرش بلاد اليمن ٧ ملوك بعد داود بن سليمان وحكموا شعب الهوارة، ذكرهم القرآن الكريم في سورة الدخان (٤٤ : ٣٧) وهم "قوم تبع" بمعنى تتابع، أي أن كل ملك خلف الآخر على العرش والحكم. كما خلفه أيضاً على أمانة السر وسماع الوصية. وبذلك بقى تابوت العهد في مكانه تحت حماية الأسرة المالكة جيلاً بعد جيل.

في نهاية حكم الملك السابع، سقطت المملكة اليمنية، فهاجرت بعض القبائل إلى جنوب مصر، وبعضها إلى ليبيا أو إلى السودان. وهاجرت الأسرة المالكة من (قوم تبع) من اليمن إلى جنوب مصر. واستقرت في مدينة (قنا) ثم سافر بعضهم إلى ليبيا. وكان من بينهم الشيخ موسى البرّاد الذي عاش ومات هناك في مكان يعرف باسمه حتى اليوم. والخرائط الليبية القديمة تسمى المكان (بركة موسى)، التي تغير اسمها وتعرف اليوم بمدينة برقة.

كان لموسى ٧ أبناء، أكبرهم هو الشيخ شاه الدين، ومعنى الاسم (من ينشر الدين) وقاد الشيخ شاه الدين إخوته الستة إلى جنوب مصر ثم جنوباً إلى السودان، وكان ذلك في القرن السادس عشر. في ذلك

الوقت كان معظم السودانيين يقيمون حول شواطئ النيل تاركين المناطق الأخرى، مثل كردفان، التي بقي فيها قليل من السكان بسبب أراضيها الصحراوية وقلة الماء فيها. وبينما الشيخ شاه الدين وإخوته يتنقلون من مكان إلى آخر، وصلوا إلى منطقة كردفان، ووجدوا أحد الخدم يسحب بعض الماء من البئر. فطلبوا منه أن يعطيهم بعض الماء للحصين لتشرب. وكان رد الخدام أن الماء الذي في البئر لا يكفى الناس فكيف يعطيه للحصين؛ ولكن شاه الدين كرر الطلب. وأمام الإلحاح أنزل الخادم دلوه في البئر العميقة، وفوجئ بأن الماء يرتفع حتى وصل إلى منتصف البئر بعد أن كان في القاع. فترك الدلو وجرى يخبر الناس بما حدث.

رحب أهل القرية بشاه الدين وإخوته. وقدموا لهم مساحة كبيرة من الأرض للإقامة عليها. ويقال أن مساحة الأرض كانت تقرب من مساحة ولاية كردفان الحالية. بل إن أفراد القبيلة من كبار السن يقولون أن أبعاد الأرض وحدودها شبيهة بأبعاد وحدود مدينة أورشليم. وبعضهم يرى في خريطة ولاية كردفان الحالية شبهاً قريباً من خريطة

أورشليم. لكن قد يختلف الأمر عند المراقب غير المتحيز. ويؤكد أفراد قبيلة شاه الدين أن سبعة من المشايخ وعلى رأسهم سلطان كردفان نفسه، قاموا بتسليم الأرض إلى شاه الدين. ويؤمن عبد الله أن هذه الأمور تمت هكذا لتحقيق نبوة من الكتاب المقدس تقول:

"يأتي شرفاء من مصر. كوش تسرع بيديها إلى الله." (مزمور ٦٨: ٣١)

في ذلك الوقت، اختار شاه الدين موقعين على بعد خمسة أو سبعة أميال من مكان قرية جرعاد الحالية: الموقع الأول خصصه مكاناً لمقابر الموتى من العائلة، وكنوزهم أيضاً دفنوها في هذا الموقع.

أما الموقع الثاني فقد قال شاه الدين أنه سيدفن فيه كفن جده الذي أحضروه معهم من اليمن- كما حمل شعب إسرائيل جثمان يوسف عند خروجهم من مصر في طريقهم إلى أرض الموعد. ووجه شاه الدين شعبه إلى عدم دفن أحد في هذا الموقع الثاني. وقام بعمل بناء لهيكل مبسط في نفس الموقع لعبادة الله. ووجه الشعب أيضاً إلى تكريم الآباء والأجداد وأنهم قبل زيارة مقابرهم عليهم أولاً زيارة مقبرة الجد الأكبر الذي أحضروه معهم من اليمن، وعبادة الله هناك. ومنذ ذلك الوقت وشعب القبيلة يحضر إلى هذا الموقع للعبادة.

الأهالي الذين يسكنون في قرية جرعاد بالقرب من هذه المقابر يشهدون عن حوادث كثيرة وقعت بمقبرة جد شاه الدين. فهم يشاهدون بانتظام أنواراً غريبة في الليل تسطع في المنطقة، ومعظمهم يعتقدون أن الملائكة تقوم بحراسة الموقعين، بينما البعض الآخر يقول أن الجن هم الذين يحرسون المكان، لأنهم حسب تعاليم الإسلام، يقولون أن الملائكة لا تحرس إلا الأنبياء فقط.

من أهم القصص التي تشد الإنتباه حول هذه المنطقة، تلك التي وقعت يوم مولد عبد الله. وتحكى القصة عن أب أخذ ابنه للصلاة عند المقبرة المدفون فيها جد شاه الدين، طالبين أن يعلن الله لهم مكان كنز القبيلة المدفون في الموقع الخاص بالمدافن. وبعد مضى شهر في صلوات مستمرة، ولم يعلن الله المكان، قرر الأب وابنه أن يكون البحث عن الكنز المدفون بالحفر في منطقة المدافن. وهنا ظهر في مكان مقبرة جد شاه الدين شكل رجل طويل جدا، أطول من ارتفاع البيت ورأسه مثل الشمس. وقد بدأ يتحرك بسرعة. فما كان من الرجل وابنه إلا أنهما جريا نحو قرية جرعاد لرواية ما حدث لأهل القرية.

نبي من جرعاد

فـــي العشـــرينات مـــن هـــذا القرن. أي بعد مرور ثلاثة قرون على وصول شاه الدين للسودان، ومع الجيل الجديد من سلالة أسرته في الجيل الســـادس بعد شاه الدين، تزوج يوسف شاه الدين من "طيبة فضل الله" عام ١٩٢٧ في قرية جرعاد. ولما ولدت طيبة ابنها الأول، مات الولد بعد أيام قلـــيلة. وبينما طيبة في حزنها وألمها على ابنها رأت رؤيا عجيبة، وكأنها ذاهـــبة إلـــى قـــبر جدها شاه الدين، وأخذت بعض الرمل بيدها، ودعكت بالـــرمل بطنها، وصلت إلى جدها ليعطيها طفلاً آخر بدل أبنها الذي مات. ولمـــا اســـتيقظت بعد الرؤيا، شعرت بشيء يتحرك في بطنها. وفي رؤيـــا أخـــرى اختـــبرت طيبة هذه الحياة الجديدة مقتنعة بأنها ستلد طفلاً غير عادى.

ولدت طيبة الطفل موسى عبد الله شاه الدين عام ١٩٢٨ في جرعاد. وكنـــت تـــراه كولد صغير قد أخذ الكثير من أمه، يتمتع بحياة روحية مع انعدام التعليم الديني ولا وجود للتعليم الأساسي في تلك القرى.

فـــي الثلاثينات من هذا القرن، يذكر عن عبد الله بكل وضوح أحد الأحـــلام التـــي رآها. وكلما استعاد أحداث هذا الحلم، يتأكد بأن الحلم يخـــبره بشـــيء في المستقبل. فقد رأى في الحلم صندوقاً ترفرف عليه سحابة كبيرة. ورأى نفسه في الصندوق الذي كان يدور حول نفسه. ثم

تحـــرك به الصندوق حتى وصل إلى مدينة أورشليم وهناك سمع صوتاً جـــاء مـــن مكان عال جداً وكأنه يأتي من بين جبلين (ربما جبل سيناء وجـــبل صـــهيون) وســـمع الصوت يقول: "لك يارب الرحمة". ثم دار الصـــندوق مـــرة أخرى وأرتفع عالياً في الفضاء. وفجأة رأى عبد الله إنساناً آخر يجلس معه في الصندوق يقول أن اسمه "أمين".

ووصـــل الصندوق إلى حجرة في الجو، وخرج الرجل ثم عبد الله مـــن الصـــندوق. وسار عبد الله ومن خلفه الرجل إلى الحجرة. وهناك سلم الرجل الجالس على كرسي وبدون أي كلام، سلم سبعة مفاتيح إلى عبد الله، الذي استيقظ من الحلم العجيب وهو يفكر ماذا يقول الحلم له. فكر عبد الله أن الرجل الذي كان معه في الصندوق- وهو حارس ثان لتابوت العهد- سيقابله عبد الله مستقبلاً. وأن المفاتيح السبعة ترمز إلى نبوات عن بلاد كوش سوف تتحقق في الأيام القادمة.

في عام ١٩٤٨ كان عبد الله في سباته . وكان متحمساً للإطلاع الديني. كان ينادى بين شعبه بالسير في طريق الله. وكثيراً ما هاجم الـــرجال الذيـــن يجمعـــون الزكاة كل عام، ولكنهم لا يساعدون بها الفقراء كما ينبغي. بل يحتفظون بها لأنفسهم دون خوف من شكوى أو احتجاج من عامة الشعب، الذي يخاف سطوة رجال الدين التي قد

تصل في عرفهم إلى التحكم في سقوط الأمطار وشفاء المرضى والإنجاب. ودائماً كان يوجه أهله أن يبتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام. وأن يمتنعوا عن الحلف أو القسم بالآباء أو الأجداد ويتركون عادة تقديم الذبائح عند المقابر. إلا أن عبد الله لم يكن يشير على شعبه بدين معين في كل هذه التعاليم.

بدأ عبد الله في نوفمبر ١٩٤٨ يزور المكان الذي خصصه شاه الدين بالقرب من جرعاد للصلاة والعبادة عند المقبرة المعروفة عند باقي الناس بأنها مقبرة الجد الكبير. وواظب على الصلاة كل يوم سبت لمدة ثمانية سبوت. وفى السبت الثامن رأى رؤيا عن رجل قادم من أورشليم ولكنه يلبس الملابس السودانية (جلابية وعمة) ورأى الرجل يتقدم ٨ خطوات وفى الخطوة التاسعة وصل مدينة ود مدني التي تقع في وسط ولاية الجزيرة. وسمع الرجل يقول له "قابلني هنا يا عبد الله" وتكررت الرؤيا. فحكى عبد الله لوالديه عن هذه الرؤيا وهو يسأل: هل يذهب لمقابلة الرجل في ود مدني في السبت التاسع؟ إلا أن والده قلل من قيمة الحلم، قائلاً إن الكثير من الأحلام لا

تصدق. ولكن أمه شجعت ابنها للذهاب وهى تبتسم ابتسامة الأم العليمة بإحساسات عبد الله.

كانت هذه المرة الأولى التي يسافر فيها عبد الله من قريته إلى مكان آخر . ولكنه استمع إلى صوت الرؤيا. وسافر إلى مدينة ود مدني وانتظر هناك ثلاثة أيام والرجل لم يظهر، حتى بدأ يتذكر كلام والده بأن الكثير من الأحلام لا تصدق. فذهب إلى محطة السكة الحديد ليأخذ القطار الذي يعود به إلى بلدته. وقبل وصول القطار، شعر عبد الله بيد تلمس كتفه، فلما التفت، رأى نفس الرجل الذي ظهر له في الرؤيا. ومع أن عبد الله لم يقابل هذا الرجل من قبل، إلا أنه أحس بميل شديد نحوه وكأنه يعرفه منذ زمن طويل. ودار حديث ممتع بين الرجلين عرف منه عبد الله أن الرجل عمره ٥٠٠ سنة. وأنه كان يتابع الأسرة كحارس لها من وقت دخولها السودان في القرن السادس عشر.

وطلب الرجل من عبد الله أن يذهب إلى قرية نافع التي يسكن فيها عدد كبير من أهالي جرعاد، ويخبرهم أن الرؤيا تحققت. وأن الرجل نفسه قد وعد بأن يذهب إلى الأهالي ويتحدث معهم.

قبل أن يذهب عبد الله إلى قرية نافع، ذهب إلى قريته جرعاد أولاً. وهناك وجد بعض المشايخ الذين هاجمهم في موضوع الزكاة قد

دبروا له مكيدة. فاتهمه واحد منهم أنه يعاكس زوجته. ولكن الاتهام ثبت أنه باطل. فاتهمه واحد آخر بأنه حرق قطية في بيته وجاء بشهود بالكذب فحكم قاضى المنطقة على عبد الله بالسجن ١٢ شهراً. وفى يوم صدور الحكم أمسكت النار في قطية أخرى في بيت الشيخ المدعي. ولكن الحريق هذه المرة أكل القطية ومعها الأم العزيزة والجمل الوحيد الذي كان يملكه الشيخ. وقال أهل القرية أن الله انتقم لعبد الله من أجل الاتهام الباطل. وزاد اقتناع الأهالي ببراءة عبد الله من كل هذه التهم عندما احترقت كل المكاتب القش الخاصة بالبوليس في أم روابه بعد ثلاثة أيام من المحاكمة. وجاء أمر بنقل للقاضي ومساعده بسبب اتهامهم بالرشوة. وتم إرسال عبد الله إلى سجن الأبيض ومعه مساعد القاضي. عبد الله كلف بمراقبة مخزن السجن ومساعد القاضي حُكِم عليه بالأشغال الشاقة في تكسير الأحجار. وبعدها سقط من فوق إحدى الصخور، ومات.

بعد خدمة تسعة شهور في السجن، خرج عبد الله بسبب حسن السير والسلوك. فذهب بسرعة إلى قرية نافع حسب تعليمات الرجل الذي عمره ٥٠٠ سنة. وأخبر الأهالي هناك بالرؤيا وبالرجل وبالمقابلة في مدني. وطبيعي جداً أن البعض صدقوه والبعض لم يصدقه. وبعد

ذلك بفترة، أي في عام ١٩٥١ ظهر الرجل الذي قال أن عمره ٥٠٠ سنة. وكلم الأهالي بنفسه وأكد كل ما قاله عبد الله وبقى معهم في القرية مدة٩٠ يوماً. وبعض سكان القرية الأحياء إلى اليوم يذكرون هذه الأمور جيداً.

أخذ عبد الله ثمانية من أصدقائه في عام ١٩٥١ وذهب بهم إلى جبل "العطشان" وتسلقوا الجبل للصلاة لمدة ٤٠ يوماً. وهنا ظهر لهم الرجل الذي عمره ٥٠٠ سنة مرة أخرى. وكانت أنوار كثيرة تظهر في الليل وتلمع من الشرق للغرب، ومع الأنوار صوت طبول تدق دقتين في كل مرة. وقال لهم الرجل: "الناس لا تعرف قيمة عبد الله، لأن لهم عيون ولا يبصرون. ولكن يأتي يوم يرتفع قدر عبد الله فلا يصل إليه أحد. عبد الله سيكون في القمة. وكما أن جبل العطشان هو قمة الجبال، هكذا عبد الله سيكون رأس كل الشعب."

بعد ذلك عاد التسعة رجال إلى قرية نافع ونور من السماء يتقدمهم. وأهالي نافع يذكرون ذلك.

يؤمن عبد الله أن رقم ٥٠٠ هو رقم رمزي. وأن الرجل الذي يظهر لهم أكبر من ذلك بكثير- لأنه قال لهم أنه "الأول والآخر" وأنه أكثر الناس حكمة ومعرفة، وأنه في كل مكان، وأن الأرض مثل الكرة في يده. ويحكى عبد الله أنه رأى الرجل يمسك بالقرآن الكريم ثم يلفه

بقطعة من القماش ويضعه على جانب ويقول "القرآن الكريم ليس من اختصاصي" ثم يسكت قليلاً ويقول "الكتاب المقدس هو كتابي". ومع أنهم سألوا الرجل عن العمر ٥٠٠ سنة. إلا أن الجواب لم يظهر بوضوح هل هو الله الآب؟ أم هو المسيح ؟ أم هو ملاك من السماء؟

منذ ظهور الرجل لعبد الله عام ١٩٤٨ ولمدة ١٥ سنة حاول عبد الله أن يبشر الأهالي في قرية جرعاد ونافع ومدينة أم روابه. وكان ينتقل بين جرعاد وأم روابه والجزيرة والخرطوم ويتقابل مع رجال السياسة ورجال الدين. وبدون شك كان هذا أعظم عمل في حياته مع استمرار ظهور الرجل الذي عمره ٥٠٠ سنة واستمرار الأحلام والرؤى.

كان عبد الله يقول أن الرسالة المعلنه له بخصوص المسلمين أن يستمروا في إتباع تعاليم القرآن الكريم.

لآن القرآن يعلن أيضاً عن مجيء المسيح ويشير إلى ألوهيته. ومع ذلك فقد كان يقنع الجميع بأن الله يفضل الكتاب المقدس واتباع الكتاب المقدس. وأن الإسلام لم يأت ليبطل أو يلغى المسيحية التي ستبقى حتى نهاية العالم. وكان يستخدم الآيات القرآنية ليبرهن على ما يقول مثل:

﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ *سورة آل عمران ٥٤-٥٥*

و بالإضافة للتعاليم الدينية التي كان يعلنها عبد الله في رسالته، فقد قدم البرنامج الاجتماعي الذي يتناسب والمجتمع المحلى الذي كان يعيش فيه. فنصح الأهالي بتعليم أولادهم، وطلب منهم الرفق بالحيوان. ونصح الرجال بالزواج من زوجة واحدة، إلا في حالات المرض الغير قابل للشفاء فيمكن السماح بتعدد الزوجات. وأخيراً نادى بحرية الرأي للمجتمع.

تحديد إقامة عبد الله

مع أن عبد الله أعلن رأيه الواضح في موضوع تعدد الزوجات. إلا أن عبد الله نفسه كانت له ٣ زوجات. تم زواجه من الأولى عام ١٩٥٦ والثانية عام ١٩٥٧. وكانت كل زوجة من قبيلة مختلفة. فلما عرفت أسرة كل زوجة، أن عبد الله ليس بالمسلم الصحيح، سحبت كل أسرة ابنتها من بيت عبد الله. فتزوج الزوجة الثالثة من قبيلته عام ١٩٦٠. بعدها عادت زوجته الأولى والثانية إلى بيت الزوجية، ليس

من باب النفاق، ولكن من باب الحياة الكريمة. وقبل عبد الله عودة زوجاته إليه. وكان له ١٦ طفلاً من زوجاته الثلاث.

لم يمض وقت طويل على المشاكل التي هزت عبد الله في حياته الخاصة، حتى بدأ الأهالي الذين كان يبشرهم يتكلمون عليه. وأصبح عبد الله السبب في خلافات واسعة تعرضه للخطر. فبعض الأهالي قالوا أن عبد الله يدّعي النبوّة وهذا يعرضه للموت. لأنه ليس من المفروض أن يظهر نبي بعد النبي محمد فهو خاتم الأنبياء. وآخرون يقولون عن عبد الله انه ترك الإسلام ليدخل في الديانة المسيحية. وهذا أيضاً يعرضه لخطر الموت أو السجن مدى الحياة بسبب الارتداد عن الإسلام. وهذا ما حدث بالفعل ففي ١١سبتمبر ١٩٦٣- تم استدعاء عبد الله حسب طلب قاضي محكمة أم روابة ليسمع رد عبد الله على بعض الأسئلة. وأستمرت المحاكمة ثلاثة أيام. وأمر قاضي المحكمة بتحديد إقامة عبد الله في بيته. وأرسل القاضي أوراق القضية لرئيس المحكمة العليا في الخرطوم لدراستها. ثم حولت أوراق القضية لمفتي السودان، وهو أعلى سلطة دينية للمسلمين في السودان، فدرس القضية

أيضاً. وجاء الرأي النهائي أن عبد الله الآن مسيحي. وعلى قاضي أم روابه أن يمهله ثلاثة أيام للعودة إلى الإسلام وإلا يحاكم بتهمة الردة، وعقوبتها الموت شنقاً.

وبقى عبد الله في بيته، قبل أن تحدد إقامته. رافضاً العودة إلى الإسلام، مع أن المعروف أن المتهم بالردة يجب أن يقضي فترة المهلة في السجن، والسبب أن الجميع يذكرون ما حدث في أم روابه من ١٥ سنة مضت. واعترف بعض رجال البوليس لعبد الله أنهم خافوا من الحرائق وحالة الأمن في المنطقة لو أن السلطات أمرت بسجنه. ومع ذلك حدث حريق كبير في أم روابه في بداية أيام المهلة، دمرت أكثر من نصف المدينة. ولم يكن هناك أي تفسير عن سبب اشتعال النيران. وكان رأى رجال الدين الإسلامي في سبب الحريق أنه عمل شيطاني. أما عبد الله، عندما سألوه، قال بأن الله سمح بذلك.

في صباح اليوم الثالث من المهلة، قال القاضي لعبد الله أنه تلقى برقية من مسئول عالي المستوى، يأمره فيها أن يترك كل أوامر رئيس المحكمة العليا وأوامر مفتى السوادن الخاصة بهذه القضية، وأن يحكم ببراءة عبد الله، وأن الحكومة سوف تحميه إذا حاول سكان المنطقة

التعرض له بالأذى. وبعد أيام قليلة سمع عبد الله في الراديو خبراً يقول أن رئـيس الـبلاد أمر بعزل رئيس المحكمة العليا ومفتى السودان من الخدمـة حسب القرار الصادر من الفريق إبراهيم عبود نفسه. وعرف عبد الله أن الرئيس هو الذي أرسل البرقية للقاضي في أم روابه ونقض أحكـام رئيس المحكمة العليا ومفتى السودان. ومهما كانت الأسباب في صـرف النظر عن هذه القضية، فقد اعتبر أهالي المنطقة أن ما حدث يعتـبر انتصـاراً لعـبد الله. فمن النادر جداً أن يفلت متهم بالردة من العقـاب. وأن نجـاة عـبد الله من الموت أمر لا يقل عن المعجزات. وعلـى ذلك لم يتعرض الأهالي في المدينة لعبد الله في معتقداته الدينية التـي لا تهددهم في شيء. ومع ذلك، جاء القاضي يطلب من عبد الله الـبقاء بالمـنزل حماية له. لأن مشاعر بعض الناس المتشددين بدأت تـأخذ صـورة الهجوم عليه وعلى تعاليمه مما يعرض حياته للخطر. فوافـق عـبد الله على رأى القاضي مقتنعاً بأن الخطر قد يمس الناس الذيـن يزورهم. وبقى عبد الله في بيته لا يخرج إلا في الأحوال الهامة جداً مثل زيارة مريض في المستشفى أو أمور أخرى شبيهة بذلك. هذا ما حدث في عام ١٩٦٣ وإلى اليوم وعبد الله يقضى معظم وقته في البيت. فقد

لاحـظ أنـه أصـبح مشـهوراً بعـض الشيء وأن الناس من المسلمين والمسيحيين يأتون إلى بيته ليسمعوه ويستفيدوا برأيه في كثير من الأمور.

كـان يـوم ٥ سبتمبر ١٩٦٥ من الأيام الحزينة في حياة عبد الله وأسرته عندما جاء خبر يقول أن أحمد- الابن الأكبر لعبد الله وسنه ٧ سـنوات- قـد غرق في بركة المدينة في أم روابه ومعه صديق آخر. ولـم تقتنع الأسرة أن ما حدث مجرد قضاء وقدر، لأن عمق الماء في الـبركة لا يزيد عن عشرين سنتيمترا، وأن الغريق الثاني لم يكن إلا الإبـن الأكـبر لصديق من أصدقاء عبد الله أسمه حمدان- وهو الشيخ الوقـور الـذي جاء من دارفور لزيارة عبد الله وقضى معه ٣ شهور يناقش بعض الأمور الدينية، والذي تغير أخيراً وأصبح من المسيحيين. وهـذا شـجع آخرين من قبيلته للدخول في الدين المسيحي. لذلك تعتقد الأسرة أن أحد الساخطين على عبد الله وعلى الشيخ حمدان دبر طريقة قـتل الولديـن بالغرق في البركة انتقاما من عبد الله وأسرته وأولاده. والكثير من أهل القرية والقرى المجاورة تركوا الإسلام وساروا حسب الأفكـار الدينـية التي ينادى بها عبد الله، مع أن تلك الأفكار لا يمكن إعتبارها أفكاراً مسيحية بالفعل وإنما هي ببساطة انشقاق عن الإسلام.

بدأ الخوف يدخل إلى قلب عبد الله، خوف على نفسه وعلى أسرته بسبب العداوة المتزايدة التي لمسها من أهالي أم روابة ففكر في الانتقال إلى مدينة ود مدنى في عام ١٩٧٠. وكانت الكنيسة الكاثوليكية في السودان قد اعتبرت عبد الله من القادة المعروفين في مجتمعه المحلي وأن له القدرة والدوافع للقيادة المسيحية في السودان. مع أن الكنيسة تعرف عبد الله منذ عام ١٩٦٠ عندما كتبت الصحف عنه، لكنها لم تقترب منه إلا لتحسين العلاقة بينهما. وكانت مبادرة الكنيسة الكاثوليكية هي الأولى من نوعها في حياة عبد الله وأسرته، وكانت هذه بداية تعرف عبد الله وأسرته على الكنيسة، وعلى المسيحية، وعلى الكتاب المقدس لأن الأسرة لم يسبق لها التعبد، أو سماع عظات- لا مسيحية ولا إسلامية ولا يهودية. في فترة الخمسينات والستينات ظن البعض أن عبد الله وأسرته كانوا من المسيحيين ومع ذلك، فلم تكن للأسرة قيادة روحية بعد شاه الدين إلا قيادة عبد الله.

عندما قرأت الأسرة في الكتاب المقدس لأول مرة في السبعينات. لاحظوا أن الكثير من تعاليمهم وتقاليدهم شبيهة بتعاليم وتقاليد اليهود. فشعوب الهوارة ترفض أكل لحم الجمال ولحم الأرانب مثل باقي

القبائل. وهذا ما يحدث عند اليهود ، فقد منع موسى النبي أكلها. ثم أن أسرة عبد الله تقدس يوم السبت وليس الجمعة ويقولون أن يوم السبت هو اليوم الأخضر، يوم السلام. ويمتنع الهوارة عن السفر يوم السبت: فهو يوم راحة. لاعمل فيه، حتى المنازل لا تنظف يوم السبت. وقد وجدوا في الكتاب المقدس أن الشعب اليهودي يلتزم بنفس الأوامر، فهل ماضيهم يرتبط بماضي اليهود؟

وفى فبراير ١٩٧٤ قام كاهن الأبروشية المحلية بمعمودية عبد الله وأسرته وعددهم يقرب من ١٠٠ شخص . وقبل أن تتم المعمودية كانت هناك اتصالات بين الكاهن في ود مدني ورئاسة الكنيسة في الخرطوم خوفاً من غضب الحكومة. واتصلت رئاسة الكنيسة بنائب رئيس الجمهورية السيد جوزيف لاقو الذي اتصل بدوره بالسيد الرئيس جعفر نميرى. وكان سؤال نميرى : هل هذا العدد طلب من نفسه العماد والتثبيت، أم أن ذلك جاء نتيجة وعظ وتبشير من الكنيسة. ولما تأكد أن طلب العماد هو رغبة شخصية من الأسرة، لذلك وافق على إتمام المراسيم الدينية للمعمودية. وقام رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في السودان بخدمة التثبيت المقدسة لكل الأسرة في ٢٤ فبراير. واليوم نمت أسرة عبد الله وأصبحت ٥٠ أسرة تضم أكثر من ٣٠٠ شخص

بجانب أعداد أخرى من الأهالي في أم روابة تتبع تعاليم عبد الله وإن لم تكن مسيحية تماماً.

عبد الله وأسرته يتعرضون للاضطهاد

في الربع الأخير من هذا القرن العشرين، تعرضت الأسرة لمضايقات مستمرة وإضطهادات لأنهم يتمسكون بالإيمان المسيحي. فقد أجبروا على ترك مساكنهم أكثر من ٨ مرات من أصحاب المنازل المسلمين الذين لا يحتملون سكنى المسيحيين بالقرب منهم، وأخذ الاضطهاد صورة أخرى بعد ذلك. كانت هناك ست عائلات مسلمة زوجت بناتها لشباب من أسرة عبد الله، تقدمت للمحكمة تطلب طلاق بناتها المسلمات من الأزواج الذين ثبت أنهم أصبحوا مسيحيين. وحكمت المحكمة بالطلاق إلا أن ثلاث زوجات فضلن البقاء ورفضن الطلاق وتبعن المسيحية. أما الباقيات فقد عدن إلى أسرهن ومعهن أطفالهن ورجعن إلى الإسلام.

استمرت أسرة عبد الله تمارس حياتها في ود مدني حتى عام ١٩٩٤ عندما أجبرتهم الحكومة في إذلال بمغادرة المدينة عندما هجمت قوات الأمن الحكومي فجأة على البيت وقبضت على عبد الله مع ثلاثة من شيوخ الأسرة وكان ذلك في الساعة الخامسة من مساء

١٤ يوليو ١٩٩٤. ثم قبضت على أربعة من الشباب، ثم أطلقوا سراح الشباب. أما الشيوخ مع عبد الله فقد وضعوهم في الحراسة ولم يكن هناك أي سبب إلا الاضطهاد الديني، مع أن الأسرة لم تفكر في موضوع التبشير. وعبد الله كان يلزم داره معظم أو كل الوقت كما تعود منذ عام ١٩٦٣. لم تسمع الأسرة شيئاً عن كبارها المحجوزين في الحراسة لمدة يومين . ووصلت الأخبار للمسيحيين في المدينة. وكلفت الكنيسة الكاثوليكية أحد المحامين للدفاع عن المسجونين. وأخيراً، وفى السبت الساعة ١٢ ظهراً، أحضروا المسجونين أمام القاضي ووجهت إليهم تهمة الارتداد عن الإسلام والدخول في المسيحية وهذه التهمة عقوبتها الإعدام تحت المادة ١٢٦ من قانون السودان، وسألهم القاضي متى وأين ولماذا أصبحوا مسيحيين، واستمرت الأسئلة ما بين ٤ – ٥ ساعات بلا فائدة. وكان دور المحامي الذي كلفته الكنيسة بالدفاع عن المسجونين ضعيفاً جداً. وعندما سأل المحكمة عن صاحب الدعوة ضد موكليه. رد القاضي بأن هذا سر من أسرار المحكمة. وحذره القاضي بأنه غير مسموح له بالكلام في قاعة المحكمة.

واستمر الحجز في الحراسة والسجن. وزارهم في السجن اثنين أو ثلاثة من البوليس في أوقات مختلفة محاولين إقناعهم أن يتخلوا عن

مسـيحيتهم والعودة إلى الإسلام وأن كل ما عليهم أن يقولوا الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فيطلق سراحهم. وبينما الـرجال في السجن، هجم ضباط الأمن على منازل الأسرة بالليل أكثر مـن مـرة. مـزقوا الكتب المقدسة والأوراق الرسمية الخاصة بأفراد الأسـرة مـثل شـهادات الميلاد والزواج وحتى الخطابات الخاصة لم يـتركوها ومقـتطفات الصـحف التي كتبت عن عبد الله. وفى النهاية أحرقوا كل شيء بأمر من الحكومة.

وجـاءت حادثـة الجلد، عندما ذهب القاضي من قاعة المحكمة إلى مكـان السجن يوم الاثنين الساعة ٣٠ : ٤، وأمر واحداً من البوليس بجلد عـبد الله وزميله مهنا (أحد المسجونين مع عبد الله) أكبر المسجونين سناً ومقامـاً، ٨٠ جلـده لكل واحد من الشيخين. وبدأوا بجلد مهنا في حوش المحكمـة وأمـام أهلـه ومسيحيين آخرين يصل عددهم إلى١٥٠-٢٠٠ شخص، بينما وقف المئات من الأهالي خارج المحكمة يراقبون ما يحدث. وقـف مهـنا ثابـتاً يتلقى الجلد بسوط من عصب الجمال يقطع أولاً في الجلابـية ثم في جسم مهنا إلى أن سقط على الأرض فاقد الوعي. وتركوه

بـلا عـلاج أو إسعافات. ولما جاء دور عبد الله للجلد، قال للقاضي بأنه مـريض ويعـانى من ارتفاع في ضغط الدم فقال القاضي ستجلد إلى أن تعـرف وتقـر بمن هو النبي محمد. ولم يحتمل الشيخ الكبير أكثر من ٥ جلـدات وسقط فاقد الوعي. وقبل أن تنزل الجلدة السادسة تحرك رجل من البولـيس وأمسـك بالسـوط قبل أن ينزل على جسم عبد الله. الأمر الذي جعـل الجماهـير الواقفـة تتحمس وتصرخ " لماذا تجلدون هذا الرجل؟" "تقولـون انه توجد حرية أديان في السودان" "لماذا تعاملون المسيحيين في السـودان هكذا؟" وخاف القاضي غضبة الجماهير، وأمر البوليس بالقبض علـى كـل مـن دخل حوش المحكمة لأنهم يهددون سير القانون. ولكن البولـيس كان يسأل كل فرد إن كان من المسلمين يخرج، أما إن كان من المسيحيين فيوضع في السجن، وكان عددهم ٤٨ شخصاً. ثم أمر القاضي بالإفـراج عـن مهـنا وعبد الله بعد التوقيع على تعهد بتقديم أنفسهم أمام القاضـي عـند الطلب. وخرج القاضي ثم عاد مرة أخرى ليأمر بالإفراج عـن ال ٤٨ الآخريـن. ونقل أفراد الأسرة مهنا وعبد الله إلى المستشفى حيث خرج عبد الله بعد إسعافه، أما مهنا فقد قضى يومين في المستشفى.

قررت الأسرة مغادرة ود مدني بسبب الهجمات المتكررة من البوليس وضباط الأمن. ونصحهم بعض الأصدقاء بالذهاب إلى الخرطوم حيث توجد المؤسسات الأجنبية ومنظمة حقوق الإنسان. وحيث يكون الأمر صعباً على الحكومة أن تمارس الاضطهاد الديني بعد توقيعها على احترام حقوق الإنسان. وانتقلت الأسرة فعلاً إلى الخرطوم في أغسطس ١٩٩٤. ومع أنهم لم يتعرضوا للمضايقات مرة أخرى إلا أنهم يشعرون بمراقبة الحكومة لهم ، ولذلك يخافون المستقبل.

أسرار مدفونة في قبر

وتكتمل الدائرة في قصة عبد الله. و تنتهي حيث بدأت بأسرارها ومقابرها التي أقيمت منذ أربعة قرون مضت بواسطة الشيخ شاه الدين. فالناس الذين يعيشون بالقرب من منطقة المقابر تظهر لهم الأنوار من نفس الموقع الذي دفن فيه شاه الدين جده كما قال. ولكن الأهالي لا يعرفون مصدر هذا النور أو إلى أي شيء يشير. واستمرت الأحداث الغريبة حول المقبرتين.

هناك أسطورة يحكيها سكان المنطقة أنهم دفنوا أحد موتاهم من قبيلة أخرى في واحدة من المقبرتين. وفى اليوم التالي وجدوا الجثة خارج القبر. وتكررت مثل هذه الأساطير مما سبب الخوف عند سكان المنطقة. فزاد تكريم الأهالي للمقبرتين

وأصبحت قاعدة عندهم بعدم دفن أحد في مقبرة جد شاه الدين. وأن المقبرة الثانية لأفراد الأسرة فقط.

لكن ما حدث في عام ١٩٦٧ كان يرمز لأمر خطير: رأى أحد الأهالي في قرية جرعاد حلماً وكأن الله وحوله الملائكة ينزلون من السماء على المقبرة التي دفن فيها شاه الدين جده وسمع صوت يقول: "إنه الله وحده الذي ينزل الآن إلى الأرض". وفى الصباح كان يحكى عن حلمه وهو يشير بيديه نحو السماء . فنزلت نار من السماء وسقطت كواكب على الأرض. وحدث زلزال عنيف تحدد مكانه في جبل ديمبر في ولاية كردفان. وسجل تاريخ هذه الأحداث يوم ١١ أكتوبر ١٩٦٧ ولا زالت ذكرى هذه الأحداث باقية في أذهان من شاهدوها.

بعد كل هذه الأحداث، وصل عبد الله إلى استنتاج مؤكد أن مقبرة جد شاه الدين ما هي إلا مكان حفظ تابوت العهد، ولكنه يقول أنه لم يعلن له ذلك لا في رؤيا أو حلم ولا حتى عن طريق الرجل الذي عمره ٥٠٠ سنه. ثم يعترف أن شعوره وإحساسه الداخلي يؤكد له أن شاه الدين قال للناس أن هذا المكان هو قبر جده ليحول أنظارهم عن مكان تابوت العهد . ثم يقول أن شعوره ربما كان الإعلان الواضح.

لم يكن بالأمر الصعب أن يصل عبد الله إلى هذا الاستنتاج حول المقبرة :

- إدراكه الذي كان ينمو يوماً بعد يوم أن الهوارة هم من نسل يهودي ...
- معرفته بقصة التابوت في التراث الإثيوبي وتقابلها مع قصة شاه الدين ...

- ظهور الرجل الذي عمره ٥٠٠ سنة وإشارته إلى أنه حارس الأسرة ...
- الظهور المتكرر للأنوار في نفس موقع المقبرة وما يتبع ذلك من أحداث وأساطير وأسرار ...
- والرؤيا التي رآها في صباه عن الصندوق الذي طار به نحو السماء ليجد نفسه في حضرة الله ...

كل هذه الأحداث والأسرار تجتمع معاً لتشير إلى المقبرتين ، بأن السر المدفون فيها أكثر من أن يكون مجرد كفن لأحد الأجداد. واحتفظ "عبد الله" عبد الله بهذا الشعور لنفسه ولم يخبر به أحداً وهو يعلم أن الله قد استأمن تابوت عهده ليكون في حراسة أسرته. ووصل عبد الله إلى اقتناع تام بأنه من حقه أن يعلن مشاعره حول الأسرار المحيطة بالشيخ شاه الدين. لكن الوقت المناسب لم يأت بعد.

تغير الموقف بعد الاضطهاد الذي قاست منه الأسرة في عام ١٩٩٤. فقد شعر عبد الله في الفترة من ديسمبر ١٩٩٤ إلى يناير ١٩٩٥ أن الوقت مناسب ليحدد عبد الله للعالم كله أين يوجد تابوت العهد. فطلب من حنا ابن أخيه أن يكتب مقاله قصيرة عن تاريخ الأسرة، وارتباط هذا التاريخ بمعرفة مكان تابوت العهد. ثم وزع المقالة على المرسلين الأجانب. وأقيمت حفلة صغيرة بهذه المناسبة لتكريم عبد الله.

بدأت الأبحاث فعلاً لمعرفة المكان. وكان على الذين يقومون بهذه الأبحاث أن يسافروا بالأتوبيس المستهلك من الخرطوم إلى مدينة أم روابة في رحلة تستغرق ٦ ساعات، وفى طرق غير ممهدة وفى جو حار ورطوبة تفوق الوصف. ثم من أم روابة إلى جرعاد باللواري المكشوفة بلا مقاعد. النساء

تجلسن على الأرض والرجال وقوف. ولابد من السير باللواري بأقصى سرعة، وإلا غرست في الرمال وتعطلت الرحلة التي تحتاج إلى ساعتين من أم روابه إلى جرعاد. أما المساحات الشاسعة المحيطة بالطريق فقد نسيها الزمن ولم يصلها أي تطور: منازل من القش، والانتقال من مكان إلى آخر بالجمال. وبعد الوصول إلى جرعاد نحتاج إلى ساعتين مشياً على الأقدام لنصل إلى مواقع المقبرتين، وقد نحتاج إلى الحمير لنقل ما نحتاج إليه من أجهزة وآلات للبحث. والكل يقول عن رحلة المشي أنها شاقة جداً، فأنت تمشي على أرض جافة، عليها بقايا المواشي والأغنام التي تسرح في كل مكان تبحث عن النباتات، فتثير الهواء المثقل بالغبار وينتشر الذباب فتسبب العذاب للإنسان والحيوان. ولا يخفف من صعوبة الطريق إلا عندما نصل إلى مناطق زراعة البطيخ الذي ينتشر في هذه المنطقة فنبرد به عطشنا في فترة الراحة.

عند وصولنا إلى منطقة المقبرتين التي تميزها ثلاث شجرات وتكثر بأرضها الحُفر والفجوات، نجد الأهالي الذين يسكنون بالقرب من المكان يقولون لنا "أنتم تسيرون على أرض مقدسة" فيخلع الجميع أحذيتهم ونسير بحذر من العقارب الكبيرة والرمال الهشة التي تلفح أقدامنا. ويحتاج خبراء البحث إلى زيارة المكان أكثر من مرة والعمل في درجة حرارة مرتفعه تزيد على ١١٠ درجة، ثم يعودون في الليل وهم يخافون الحيّات والثعابين وجيوش من الفئران البرية. وكان اهتمام خبراء البحث باكتشاف أي شيء مدفون في هذه المنطقة الرملية، باستخدام أجهزة القياس المغناطيسي لإلتقاط أية إشارة تدل على وجود صندوق تحت الرمال. وفي

النهاية استطاع الجهاز أن يلتقط ٣ إشارات: إتضح أن الإشارة الأولى من طشت كبير والثانية لحجر بطارية. أما الإشارة الثالثة فلم يوجد الجسم الذي سجل الإشارة وبقى سراً لم يكتشف بعد. حاول أفراد الأسرة البحث مرة ومرات بالحفر والتخمين لوجود تابوت العهد الذي ظنوا أنه هو مصدر الإشارة الثالثة، ولكنهم لم ينجحوا. ولم يجدوا أي دليل يؤكد هذا الجزء من قصة عبد الله.

إلى أين ؟ عبد الله وأتباعه

بالنسبة للمستنيرين، فان قصة عبد الله سوف تدعو إلى عدة أسئلة في محاولة الوصول إلى معرفة تشبع درجة الاهتمام. وفى كل الحالات هناك احتمال للخطأ والصواب في موضوع لم يتفق الجميع على قبوله، بسبب أفكار أو تجارب قد لا يصدقها العقل. فالرجل عبد الله، وهو إنسان معروف بطيبته وحسن سلوكه وقدرته على القيادة الروحية، ولكنه لا يملك الحكمة بفهم الأحداث التي تدور حوله. ولم يكن هو أحد علماء الكتاب بعد أن تعرف على الإنجيل في السبعينات. بل هو يعتمد على التخمين وما يشعر به في داخله. وبسبب سيطرته الروحية على أفراد أسرته يعود إلى أحلام ورؤى، يحكيها لهم وهم يتأثرون بها بدون المحاولة لدراستها أو مقارنتها مع ما يناسبها من تعاليم أخرى يكون لها نفس السلطان الروحي. مما جعل أحد أفراد الأسرة أن يعتبر عبد الله قد قادهم إلى ارتباك روحي كبير.

ولكن مطلوب من رجال الفكر والمنطق سواء في الغرب أو الشرق عدم ترك الموضوع عند هذا الحد خصوصاً إذا كان الموضوع يتصل بتراث وتقاليد مجتمع مختلف عنهم. فالعالم والفيلسوف النفسي الأمريكي وليم جيمس يقول في كتابه المعروف "مختارات من اختبارات دينية" أن الأحلام والرؤى في الأمور الروحية تكسر حاجز العقل والمنطق فيما يتعلق بالأمور الروحية ، وتعلن إمكانية ما يسمى "ترتيبات جديدة للحق" ويؤكد لنا جيمس أن التفسير العقلي والمنطقي ليس هو السبيل الوحيد بل هو أحد الطرق للوعي والإدراك. ولا يلغي السبل الأخرى التي قد تعتمد على اللاعقل واللا منطق. وقد يهمل رجال العقل والمنطق معاني الأحلام والرؤى وما ترمز إليه من الناحية الروحية. ولكن لا يمكن إسقاطها من حساب الفكر البشرى، ويضيف جيمس: "إن القوى الفوق طبيعية والنظرية التفاؤلية التي يمكن التمسك بها تفسّر لنا معاني الأحلام والرؤى بأنها أكثر تعبيراً عن الحقيقة في دواخلنا وكل الحق في هذه الحياة". وأظن أن هذه النقطة الأخيرة تتصل بموضوع عبد الله.

ربما كانت رحلة عبد الله الروحية تثير جدلاً قد يحسب لصالح المؤلف أولا. إلا أن الأمر المؤكد أن عبد الله نجح في قيادة أسرته وقبيلته ومعارفه فيما بعد. وإن كان بالأسلوب البسيط ولكنه نجح في نقلهم من حالة تشبه الوثنية أو تشبه الإسلام ليقودهم إلى عمق الحياة المسيحية والإيمان الذي يقف قوياً حتى أمام

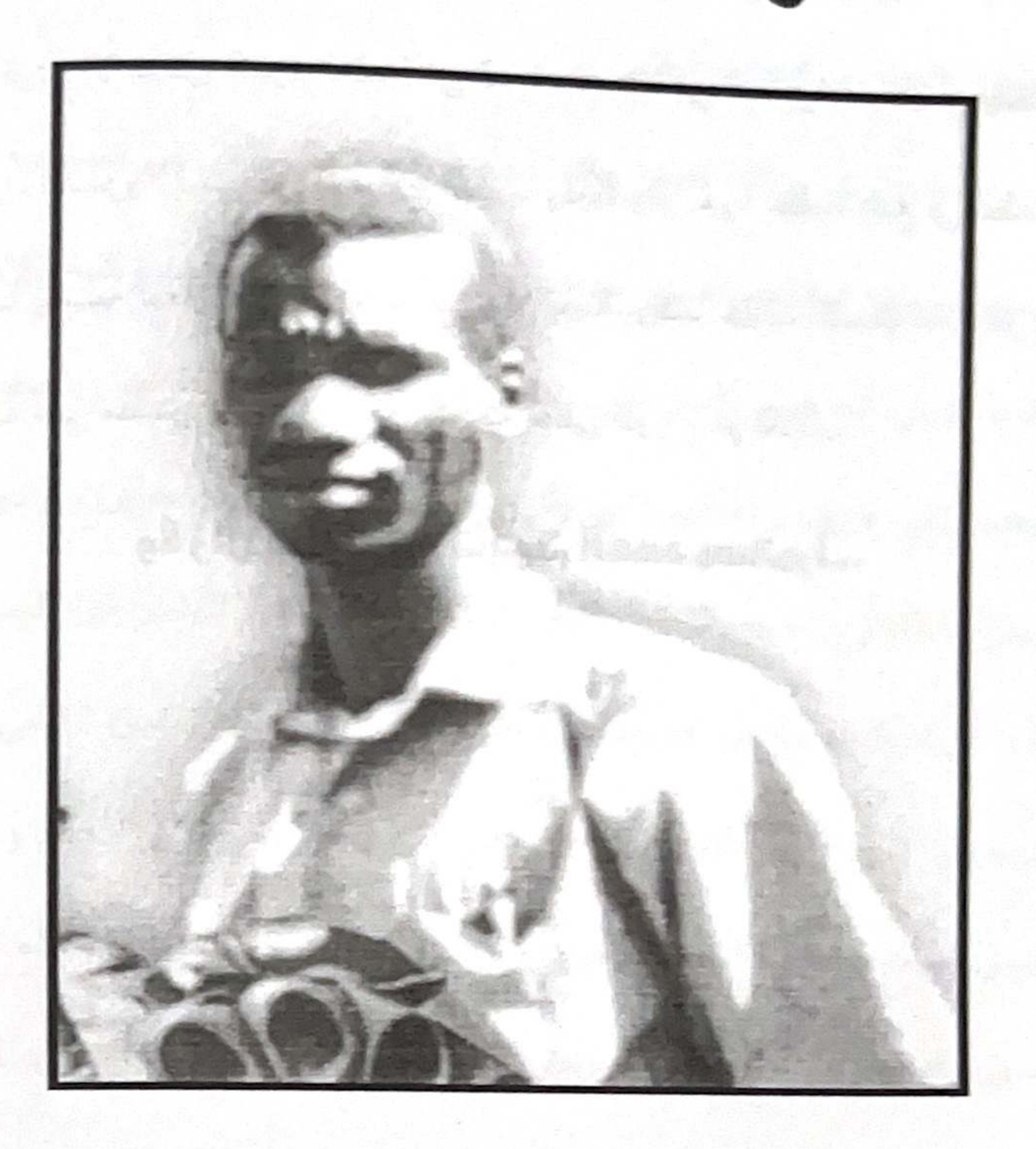
الاضطهاد، محتملين المتاعب التي قد لا تنتهي. إيمان يتمسك به جماعة لم تصل إليهم يد التطوير. بل يعيشون في عصر ما قبل العالم الحالي الحديث. ولكنهم يفضلون الحياة في أوهام وأحلام.

أما عن أتباع عبد الله في وقتنا الحاضر فهم الجيل الثاني في المسيحية. جيل درس الكتاب المقدس في مدرسة الكتاب المقدس بالجريف وكلية اللاهوت. وكمبشرين، تجدهم أكثر الناس صلة وفهماً بالناس الذين حولهم وينجحون في الوصول إلى قلوبهم وعقولهم لأنهم يقفون فوق جسر يربط بين جيلين ونوعين من التراث والتاريخ. ومع الاحترام للنظم التقليدية المتبعة في التبشير بين المسلمين، فإنهم لا يتمسكون بها. بل هم يعتمدون على قوة الكلمة وسلطان الحق الكتابي. وهم يقدرون الفكر الجديد بالعقل والمنطق وفى نفس الوقت يحترمون الأحلام والرؤى التي يتحدث عنها قادتهم الروحيين. الجيل الثاني من المسيحيين في هذه الأسرة جيل متفتح يعرفون أن الحق الروحي ليس مجرد الإيمان ولا مجرد وليد للحقيقة بل دوافع لا تعطل عمل القادة. بل تصبح عنصراً مباشراً لخطة القيادة. هذا الجيل لا يقف في نهاية التاريخ، بل في فجر تاريخ الرسل في السودان.

كانت المجموعة تشعر باليأس بسبب عدم الوصول إلى مكان تابوت العهد، وعادوا في قلق إلى قرية جرعاد تاركين خلفهم موقع المقبرتين يغطيها ظلام الليل فلا ترى إلاّ بعض النجوم اللامعة في السماء الصافية في الصحراء، وقبل أن يبتعدوا كثيراً، نظروا إلى الوراء لوداع المكان، وفجأة رأوا نوراً عظيماً يلمع في الظلام، لمعاناً يشبه لمعان مدينة مضاءة، حيث لا مدينة. وكلما حاولت المجموعة الاقتراب للتعرف على مصدر الضوء أو مكان المدينة اختفى النور وعمّ الظلام.

ولا زال البحث عن تابوت العهد مستمراً...

شهداء ملوط



إعداد : وليم ب اندرسون
ترجمة : زكرى رزق جيد

شهداء ملوط

إعداد :وليم ب اندرسون
ترجمة : زكرى رزق جيد

في بداية الخمسينات من القرن الماضي، جاء شاب شلكاوى طويل القامة إلى مدينة ملوط. وكانت ملوط من المدن التابعة لقبيلة الدينكا، وتعتبر مركزاً للدينكا الشمالية في أقصى الجنوب على بعد ١٠٠ ميلاً من ملكال. وعلى الجانب الآخر من النهر إستوطنت عشائر من قبيلة الشلك من الذين جاءوا إلى ملوط للبحث عن التعليم وعن العمل. وكان الشلكاوى الطويل القامة ويدعى أدوك دينق قد جاء من أديدواى (Adidhway) وهى منطقة خالية من أي مراكز إرسالية أو مدارس. واستطاع أدوك دينق أن يجد عملاً مع مرسلة من إرسالية السودان الداخلية (SIM) وتدعى هاريت سمث (Harriet Smich). وكان أدوك دينق شاباً أمّيّاً لم يحصل على أي قدر من التعليم، يصفف شعره على شكل طبقين من الشعر مثل كل شباب الشلك في تلك الفترة من الزمن. إلا أن أدوك كان عاملاً

مجتهداً يهتم بعمله، كما أنه كان سريع التعليم خاصة في التقاط مفردات اللغة الإنجليزية ولهجة قبيلة الدينكا.

إهتمت المرسلة هاريت سمث وزميلتها المرسلة جيرى هاينوت (Gerry Hinote) بالشاب أدوك دينق، فعن طريقهما وجد ادوك مكاناً في إرسالية السودان الداخلية في مدينة ابايات (Abaiyat) التي تبعد عن ملوط بحوالي ٣٨ ميلاً. وهناك ازداد أدوك علماً باللغة الإنجليزية وإلماماً بلهجة الدينكا. والأهم من كل ذلك، أنه عرف طريق الإيمان بالمسيح، مما زاد اهتمام المرسلتين به. فأرسلتاه إلى مدرسة الإرسالية الأمريكية في أبونق (Abwong) ليتعلم اللغة الإنجليزية ولهجة الدينكا بطريقة أوسع وأشمل. ورحبت الإرسالية الأمريكية بالشاب أدوك الذى أصبح إسمه "جديون أدوك". فقد كانت الإرسالية تبحث عن قادة سودانيين يحلون محل المرسلين عندما بدا العمل المرسلي يضعف في الخمسينات من القرن الماضي، حيث بدأت السحب القاتمة تغطي مستقبل عمل الإرساليات التبشيرية في السودان خصوصاً بين قبائل الدينكا الشمالية التى لم تستجب للعمل المرسلي فيها. لم تكن إرسالية السودان الداخلية (SIM) بالرغم من إسمها المرتبط بالسودان، قد أعدت نفسها للعمل في السودان الذي كان في ذلك الوقت تحت الحكم

"المصري الإنجليزي" فقد كان عمل الإرسالية الأساسي يتمركز في غرب أفريقيا بما في ذلك غرب السودان. ثم أمتد عمل الإرسالية حيث فتحت عملاً كبيراً في أثيوبيا عام ١٩٣٦. وبعد غزو الجيوش الإيطالية للحبشة وأرتريا، طلب من الإرسالية مغادرة البلاد، فأسسوا عملاً جديداً على حدود اثيوبيا فى (مابان، وديودوك، ويام يام) وآماكن آخرى. كما تحرك المرسلون من (SIM) إلى الدينكا الشمالية ولم يكن هذا الحقل جديداً بالنسبة للعمل المرسلى. فقد سبق وجاءت إرسالية السودان المتحدة (SUM) إلى ملوط في عام ١٩١٣. وعندما انتقلت (SUM) إلى جبال النوبة في عام ١٩٢٠، قررت الإرسالية إنهاء عملها في الدينكا مع أن دكتور رون ترادينجر (Ron Trudinger) رائد العمل الطبي في ملوط كان قد درس لهجة الدينكا دراسة متمكنة، وبدأ الاستعداد لترجمة الكتاب المقدس... فاحتفظت (SUM) بعملها في ملوط ومراكز أخرى في نفس المنطقة إلى أن جاءت إرسالية السودان الداخلية (SIM) وإستلمت العمل بين قبائل الدينكا وكان ذلك بعد عام ١٩٢٣.

مع أن رون ترادينجر كان رسولاً مرسلاً إلى الدينكا، إلا أن مدينة ملوط كانت دائماً خليطاً من الشلك والدينكا. ولم تكن الكنيسة هناك تخدم قبيلة واحدة بذاتها أبداً. غير أن الشلك كانوا الأغلبية

وشيوخ الكنيسة أيضاً كانوا من الشلك. ولهذا السبب شعر الشاب أدوك كثيراً وكأنه في بيته في ملوط. وإستفاد أدوك كثيراً من قدرته على تعلم لهجة الدينكا. بجانب أنه عندما انتقل إلى أبايات، وجد رئيس العمل هناك ويدعى راوون (Ruun) وهو والد القس هارون راوون الذى كان قد تزوج من عدة زوجات شلكاويات، واحدة من الزوجات كانت من أقرباء الشاب جديون ادوك. وقد أظهر جديون أنه يملك قدرة فائقة جداً على تعلم اللغات، وفى نفس الوقت كان مسيحياً مكرساً ثابتاً على إيمانه.

أعطت المرسلة هاريت سمث اهتماماً عظيماً للشاب جديون ادوك. فزارت بنفسها دولة يوغندة وتأثرت كثيراً بالنهضة الروحية في شرق أفريقيا. وإنتقلت إلى يوغندة عندما وجدت عملاً هناك في مجال التدريس. وإستطاعت أن ترتب لجديون أن يدرس في كلية الأسقف تكر (Tucker) في مدينة ماكونو (Mukono) في يوغندة. وهى كلية خاصة بتدريب خدام وقساوسة الكنيسة الأسقفية هناك. ومع أن جديون لم تكن لديه أي خلفية تعليمية، إلا أنه أثبت أنه تلميذ متفوق بجانب تأثره بالنهضة الروحية التي كانت تعم البلاد. فوضع لنفسة نظاماً تعود

عليه. وهو أن يستيقظ في الساعة الخامسة كل صباح ليصلى ويقرأ الكتاب المقدس. وفى بداية عام ١٩٦٣ عاد جديون إلى السودان والى ملوط. كانت ملوط في عام ١٩٦٣ قد تغيرت كثيراً. فالمدينة التي كانت دائماً مركزاً للدينكا يسكنها عدد كبير من الشلك. بدأ فيها نوع جديد من الاقتصاد مع بداية ظهور صناعة السكر. وجاء إلى المدينة عدد من المسئولين في ولاية الاستوائية وإستقروا في ملوط وإنضموا إلى جمهور المصلين الذين كانوا يجتمعون في الكنيسة بقيادة جديون أدوك. ومع النمو الذي عم المدينة، كان الإسلام أيضاً ينمو وينتشر، وتم بناء مسجد جديد في ملوط. وهنا لاحظت إرسالية السودان الداخلية (SIM) أن نهاية العمل المرسلى أصبحت وشيكة. لذلك قاموا في عام ١٩٦٣ برسامة أفضل رجلين إيماناً وتدريباً. وهما هارون راوون وجديون ادوك. وكانت الخدمة الخاصة بالرسامة هي الثانية بالنسبة لكنيسة إرسالية السودان الداخلية (SIM).

كان ذلك في ١٥ مايو ١٩٦٣ وتقرر تعيين جديون أدوك لكنيسة ملوط حيث أنه تم اختياره سكرتيراً وأميناً عاماً لكنيسة السودان الداخلية التي تكونت حديثاً. أما القس هارون راوون فقد أخذ الكنائس

الشمالية ومركزها بانجانق بالقرب من الرنك حيث أنه كان يجيد اللغة العربية. وأثبت جديون ادوك شخصيته القوية كمبشر وكارز بجانب نشاطه الواسع كقس وراعى. ومع أنه كان في الثلاثين من عمره، إلا أنه لم يكن متزوجاً.

تمت رسامة القسيسين في وقت ملئ بالأزمات. فبعد أقل من عشرة أشهر، أي في نهاية فبراير ١٩٦٤، صدر الأمر بطرد كل المرسلين في ولاية أعالي النيل. وهنا دعت كنيسة السودان الداخلية لعقد مؤتمر في شالى (chali) في منطقة النيل الأزرق حيث لم يكن الأمر قد شمل المرسلين هناك. وكان ذلك في نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل. وعندما قارب الاجتماع لنهايته، وصلت عربة كومر أمام مكان الإجتماع، واتضح أن قادة كنيسة السودان الداخلية هارون وجديون عليهم الذهاب إلى ملكال لحضور اجتماع هام. ومع أن هارون وجديون كانا في حاجة ماسة للراحة ولو لليلة واحدة، إلا أن الأمر كما قيل لهما لا يحتمل الإنتظار حيث أن وزير الداخلية سوف يجتمع بقادة الكنيسة في السودان الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وبعد سفر أستغرق الليل كله،

وصلت العربة الكومر إلى ملكال الساعة التاسعة صباحاً ولم يكن عند هارون وجديون إلا ساعة واحدة للراحة قبل الاجتماع الهام.

أجتمع عدد كبير من المسئولين عن الكنيسة في كل أنحاء جنوب السودان في رئاسة الحامية العسكرية في ملكال. وخاطب الاجتماع اللواء محمد عروه وزير الداخلية متحدثاً باللغة العربية الفصحى. وكان الاجتماع يضم عدداً من مطارنة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفة الكنيسة الأسقفية وقادة الكنيسة المشيخية، والكل يستمع إلى ما تريد الحكومة أن تقوله. وكان خطاب اللواء محمد عروه خطاباً محدداً ولكنه في لهجة قاسية، فقد أشار إلى أن المرسلين في السودان تسببوا في مشكلة. وأعلن أن توجهات السودان وسياسته هي أسلمة السودان كله. وقال بالحرف الواحد: "أما أنتم يا مرسلين فلنا تصرف آخر معكم" مع أن بعض القادة المسيحيين حاولوا وأصروا على أن الحكومة من واجبها مراعاة حرية العبادة وحرية الأديان. إلا أنه لم يسمح لهم بمواصلة الحديث لأن الحكومة قد جاءت لتتكلم فقط. وليس لكي تسمع. فعاد القس هارون إلى بانجانق ثم سافر إلى بريطانيا حيث أنه كان في حاجة إلى تركيب ذراع صناعية بدلاً من ذراعه المكسورة. وهناك

التحق بكلية لدراسة الكتاب المقدس. أما القس جديون فقد عاد إلى ملوط لمواصلة خدمته هناك حيث أصبح القس الوحيد لكنيسة السودان الداخلية في منطقة أعالي النيل.

وكانت الرؤيا قاتمة تماماً، ليس فقط بالنسبة لقادة الكنيسة، بل بالنسبة لكل المسيحيين في السودان. وعندما بدأ موسم الأمطار،تحركت قوات الأنيانيا من الحدود الشرقية للسودان وأثيوبيا، وتقدمت بقوة نحو منطقة أعالي النيل وفرضت سيطرتها على كل الولاية باستثناء المواقع العسكرية التي تتمركز فيها الحكومة التي هاجت وارتكبت عدداً من المذابح وعذبت وقتلت عدداً من المتعلمين في سجن كودوك، وهو سجن مشهور بفظاعة أعماله القمعية في القتل والتعذيب. وبعد أيام قليلة، ذاع الخبر بوصول قوات الأنيانيا إلى ملوط ([1])

بول تشانق جوك يحكى قصته

بول تشانق جوك، وهو شيخ في الكنيسة المشيخية، وهو الشاهد الوحيد الباقي على قيد الحياة الذي شاهد أحداث الاستشهاد في ملوط

[1] معظم هذه المعلومات المبينة لخلفية الموضوع ، أنا مدين بها للقس الدكتور هارون راوون من مجلس كنائس السودان الجديد في الجنوب . بعد المقابلة التي تمت في نيروبى في شهر سبتمبر من عام ١٩٩٨. (و. ب. أ)

في عام ١٩٦٤. وقد سجلت أقواله في مقابلة أجراها معه القس (تحت التدريب) سانتينو أودونق يوم ٢٥ يونيو ١٩٩٧ في كوستى. وكانت وقائع المقابلة بلهجة الشلك وبعد ذلك ترجمها سانتينو إلى اللغة الإنجليزية. وتحكى المقابلة كيف وجد تشانق جوك طريقه إلى الإيمان وما يعرفه عن أحداث الاضطهاد، وهذا ماتم تسجيله في المقابلة:

ما دار في المقابلة بين بول تشانق جوك و سانتينو أودونق

س: يا شيخ بول تشانق جوك، انت تعرف أننا إذا لم نسجل تاريخ الكنيسة في بلادنا، فسوف يطويه الزمن في طي النسيان. خبرني: كيف أصبحت مسيحياً؟ وكيف تعيش حياتك المسيحية؟

ج : منذ طفولتي يا سنتينو وأنا أومن بكلمة الله. وعندما كنت في السابعة من عمرى أرسلوني للدراسة في مدرسة بمدينة (دوليب هل). وكان النظام أن الطلبة يرجعون إلى منازلهم في القرية كل يوم سبت ثم يعودون للمدرسة مساء الأحد. ولكن بالنسبة لنا نحن أبناء العاملين مع الإرسالية، فكنا نبقى في (دوليب هل) حيث كنا نسكن. ولكن عندما كبرت. كنت أعود إلى القرية أرقص فيها رقصات الشلك. وأشارك في

القتال. والأكثر من ذلك أنني كنت أمارس أدوار السحر وأصبحت ساحراً عظيماً.

س: هل كان والدك يعمل مع المرسلين؟

ج: نعم- كان والدي يعمل مع المرسلين. كان يعمل في البناء. وعندما هجم الأسد على تُدريك وقتله، كان والدى هناك.

س: ما هو اسم والدك؟

ج : اسم والدي هو نيانان اجنق (وكانوا يدعونه لنيانق) وقد شارك والدي في بناء عدد كبير من الكنائس مع المرسلين في أعالي النيل. **وفي** يوم من الأيام قال لي أحد الأولاد الذين يرفضون الذهاب إلى **المدارس،** وكان اسمه هاستى، قال أنه يوم أن يخرج المرسلون من البلاد، **سيطلب منك** دفع مصروفات تعليمك. وقد كان صادقاً فعلاً، فقد دفعت مصروفات **تعليمي** المطلوبة عندما ألحقت أبني بالمدرسة. (كان الشيخ بول يشعر **بالألم وهو يروى** هذه الحادثة)

س: فكيف عدت إلى الإيمان؟

ج: بسبب زواج والدي بزوجة ثانية، فصله المرسلون من العمل. فعاد والدي إلى قريتنا الأولى في بانى أدواى. فضاعت منى فرصة التعليم بسبب عدم الاستقرار ولأن والدي فصل من عمله. تركت المدرسة وعدت إلى قريتنا. وهناك عشت كما يعيش كل قروى. أرقص وأقاتل وأعمل كل الأعمال القاسية التي يعملها سكان القرى.

تزوجت من فتاة من الشلك. وعدت إلى قريتى فى بانى أدواى لأعيش مع أنسبائى. وهناك كنت أعمل بالزراعة. وكانت مزرعتي تنتج الذرة. وبعد جمع المحصول كنت أضع الذرة في مخازن. ولكنها احترقت كلها بسبب النار التي شبت بالمخازن. وفي تلك اللحظة جلست أقَيّم الظروف المحيطة بي. فأنا ولدت في مدينة وليس في قرية. ولدت في (دوليب هل). وكنت أول شخص يحمل إسم تشانق جوك[٢] كل قبائل الشلك، الذين ولدوا في القرى، ذهبوا إلى المدن. وأنا المولود في المدينة أصبحت قروياً، لماذا يحدث لي كل ذلك؟ هل أكتفي بلعبة القتال بالعصي والحراب؟ لقد كانت عناية الله

---

٢ هذا الاسم معناه " يوم الرب " أو يوم الأحد عند الشلك.

هي وحدها التي منعت وقوع المأساة. كدت أتسبب في قتل شخص، أو أن يتمكـن الشـخص مـن قتلي. وعندما تفكرت في كل هذه الأمور. قـررت العـودة إلى ملوط. ووجدت عملاً مع وزارة الزراعة في قسم حمايـة النـباتات. وهـناك تعرفت بالكنيسة. وتعرفت بقسيس الكنيسة جديـون أدوك. كان هو القس الوحيد في ملوط، وكان أول قس للكنيسة الناشئة هناك.

وعـندما ذهبـت إلـى ملوط، أخذت معي أدوات السحر. وعندما تعرفت على الكنيسة عدت إلى الإيمان وبدأت أتذكر حياتي الأولى وأنا فـي سـن الطفولـة. وعند ذلك قررت أن أتخلص من أدوات السحر. قـررت أن أرمـيها في مياه النهر. قلت لأدوات السحر: لو كنتم فعلاً آلهـة، فاقـتلونى في المساء قبل أن أتخلص منكم في الصباح. لو كنتم فعـلاً الإلـه الـذي خلقـنى، إثبتوا لي ذلك. وذهبت إلى النهر المقابل لملـوط، كانـت هـناك أعشاب مائية كثيفة على شاطئ النهر، وَألقيت بأدوات السحر عليها. ولكن لدهشتى، وجدت أدوات السحر تغوص في مـياه الـنهر. وبعد أن تخلصت من أدوات السحر، عدت إلى الكنيسة

واعترفت أمام أعضاء الكنيسة بأنني كنت أعمل بالسحر وكانت عندي أدوات السحر ولكنى تخلصت منها هذا الصباح.

س: كـيف عدت إلى الإيمان؟ هل هناك من بشرك بالمسيحية في ملوط؟

ج: لا. لم يبشرني أحد بالمسيحية. لقد كانت كلمة الله التي حفظتها في طفولتي هي المشجع لي للعودة إلى الإيمان.

س: ألم يحدث أي شئ يحرك فيك الرغبة في العودة إلى الإيمان؟

ج: لا، لـم يحدث أي شئ. الشيء الجديد الذي قد يكون هو الذي دفعنـي للعـودة إلـى الإيمان هو عن تلك الحيوانات التي كانت تقدم للقـوات السـحرية لحراسـة وإنقاذ الناس. ولكن بدلاً من إنقاذهم من المـوت مـاتوا جمـيعاً. وعـندما تأملت الموضوع جيداً، وجدت أن الموضـوع كلـه كذب وخداع. وتأثر عدد كبير من الذين سمعوا أنني تخلصت من أدوات السحر التي كنت أستعملها في أعمال السحر. غير أن البعض الآخر عاملونى بكراهية.

س: متى جئت إلى ملوط؟

ج: جئت إلى ملوط في عام ١٩٦٣. وكانت نفس السنة التي عدت فـيها إلـى الإيمان– ونفس السنة التي تخلصت فيها من أدوات السحر ورميتها في مياه النهر.

س: ما هي القبائل التي تعيش في ملوط ؟

ج: قبائل الشلك والدينكا.

س: أي القبيلتين تمثل الأغلبية؟

ج: الشلك هم الذين كانوا يمثلون الأغلبية

س: ما هي الكنائس التابعة للطوائف الأخرى في ملوط؟

ج: لم تكن في ملوط كنائس تابعة لطوائف أخرى. كانت هناك فقط كنيسة السودان الداخلية.

س: من كان يعمل هناك؟

ج: قسـيس الكنيسة جديون أدوك. وشيوخ الكنيسة وهم وليم اوليو من باثورو بانى ادواى، وسيمون انيانق من أديدواى. نفس القرية التي جـاء مـنها جديـون. وهناك أيضاً شخص آخر يدعى (دانيال يانى) ويعـرف باسم (ايانى) وهو الشخص الذي تركه المرسلون في الكنيسة

عـند مغـادرتهم للـبلاد. وكان كل من جديون، وليم اوليو، وسيمون انـيانق، يسكنون في مركز الإرسالية. أما أنا وديفيد يانق (ايانى) فكنا نعـيش في المدينة، مدينة ملوط. وكان وليم ازال، أحد مواطنى ملوط مـن الدينكا، وكان يعمل بالتدريس في المدرسة الحكومية، وكان يقوم بعمـل أمـين الصـندوق في كنيستنا. وكان رسم اشتراك العضو في الكنيسـة هـو ٢٥ قرشاً شهرياً. وبسبب هذه الاشتراكات إتهمونا بأننا ندفعها لشراء أحذية للمتمردين.

س: ماذا تعرف عن كنيسة السودان الداخلية في ملوط؟

ج: عـندما كـان المرسـلون هـم الذين يديرون العمل المرسلى والكنسي، كان المسيحيون من الدينكا ضمن أعضاء الكنيسة، ولكن بعد طرد المرسلين من البلاد، ترك كل الأعضاء الذين من الدينكا الكنيسة، وأصبحت الكنيسة للشلك فقط.

س: وما هي اللغة التي كانت مستخدمة في العبادة في تلك الكنيسة؟

ج: عندما وصلت إلى ملوط وانضممت إلى الكنيسة، وجدنا الكتاب المقـدس بلهجة الدينكا. ولكن بعد مغادرة الدينكا للكنيسة استخدمنا لغة الشلك [٣]

[٣] بحسب ما قاله القس هارون راوون . كانت الخدمات تقدم عادة باللغة العربية ، أما القراءات والترانيم فكانت تقدم بلهجة الشلك أو لهجة الدينكا حسب نوعية الحضور .

س: مَن مِن الناس الذين كانوا يعيشون هناك لازالوا على قيد الحياة؟

ج: لا يوجـد ولا واحـد مـن الذين كانوا يعيشون هناك على قيد الحياة حتى اليوم.

س: كيف كان القس يحصل على تكاليف معيشته؟

ج: كان القس يحصل على جزء من تكاليف معيشته من اشتراكات الأعضاء. والباقى من مزرعته التي كان يزرعها بنفسه.

س: ماذا تعرف عن جديون أدوك؟ من أين جاء؟

ج: جديون أدوك هو الذي كان يعلمنا في الكنيسة. وعندما تم بناء الجـامع في ملوط عام ١٩٦٣ قال لي: "تشانج جوك. هذا البناء الجديد وهـذه الكنيسة، أحدهما سوف يسقط" ([4]) فسألته لماذا يتكلم بهذا الشكل؟ فقـال لـي: لـو أن شخصاً أصيب بكسر في ساقه، وأرسلوه إلى أمريكا للعـلاج، قـد يـتم العلاج، إلا أن ساقه لن تعود كما كانت أولاً ([5]) كان

[4] كان جديون ادوك يتوقع صراعاً بين الإسلام والمسيحية.

[5] هـناك خلفـية لهذا القول الغامض: فقد جاء فريق أمريكى متخصص في البحث الطبي للبحث عن علاج لمـرض الكـلازار الـذي كـان منتشـراً في المنطقة الشمالية من أعالي النيل كان يطلق عليهم مصطلح (Namru). وقـد قصـد جديون بقوله أنه حتى الفريق الطبي الأمريكي المتخصص لو وصل إلى اكتشاف العلاج المجزى، فهذا لن يوقف الحرب أو ينهى على حياة الرعب التي تنتشر في كل أنحاء جنوب السودان.

جديـون يقول ذلك بسبب الناس المتعلمين الذين قتلوا في سجون اكوبو وكودووك وأن ما حدث هناك يمكن أن يحدث في ملوط.

المعروف أن جديون من أدبدواى (وهى على الجانب الغربي للنيل الأبيض، بينما ملوط تقع على الجانب الشرقي)

س: ما هي الكلية التي تخرج منها جديون؟

ج: أنا لا أعرف، ولكنه درس في (دوليب هل). ثم فى جوبا .([6])

س: كم كان عمره عندما تخرج من الكلية؟

ج: كـان يبلغ فوق الثلاثين من عمره. وكان جديون طويل القامة نحيل الجسم.

س: هل رُسم جديون قساً؟

ج: نعم، تمت رسامته قساً.

س: متى تمت رسامته؟

[6] الحقيقة أن جديون ادوك دراس في ابونق. ثم اكمل تدريبة اللاهوتى في كلية الأسقف تكر(tucker) فى يوغندة .

ج: لست أدرى . ولكن عندما وصلت أنا إلى ملوط، كان جديون قساً مرتسماً.

س: متى قتل جديون؟

ج: قتل جديون في عام ١٩٦٤ في نفس اليوم الذي قتل فيه سيمون أنيانق ووليم اوليو. فقد قبض عليهم قرب الساعة السابعة. في الوقت الذي يتناول فيه الناس وجبة المساء. وكان الاتهام الرئيسي هو أن اشتراكاتنا كأعضاء في الكنيسة كانت تستخدم في شراء أحذية للمتمردين. وكنا نضع ما نجمعه من مال في دكان رجل يدعى يوسف من أصل دينكاوى. وقد قبض عليه هو أيضاً لنفس السبب، فاكتفوا بقطع أذنيه ثم أطلقوا سراحه لأنه كان مسلماً وليس مسيحياً.

بدون علمنا، إتهمونا بأننا نؤيد ونساند المتمردين. وإنتشرت بعض الأقاويل بأن أي بيت يوجد به كتب مقدسة أو حتى الكتب الإنجليزية، سيحكم على من فيها بالموت. وهذا جعل عدداً كبيراً من الناس يحرق ما عنده من كتب، والبعض خبأ الكتب في أسقف المنازل. كما أن عدداً من الذين كانوا يواظبون على الكنيسة غيروا إيمانهم. لاحظنا ذلك في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة اكتمال البناء في

مسجد ملوط، رأينا بعض الناس الذين كانوا يحضرون للصلاة معنا في كنيستنا، يحملون الأطعمة من منازلهم ويقدمونها للمسجد مثل اوبار من شلك ملكال وشالتيوبيب (الذى كسر يد القس راوون من كنيسة السودان الداخلية وهم صغار في المدرسة) وكان إذا غير الناس الذين بلا عمل إيمانهم، يحصلون على أعمال بأجور وفيرة. بعد أن سمع الناس التهديدات لكل من يحتفظ في بيته بكتب مقدسة أو كتب إنجليزية أخرى، إرتد عدد كبير عن الإيمان، ولم يعد أحد يتردد على الكنيسة سوى خمسة أشخاص وهم بالتحديد: جديون أدوك، وليم أولبو، سيمون انيانق، دانيال يانى وأنا بول تشانق جوك، مع أن الكنيسة كانت تمتلئ بالمصلين أيام الآحاد قبل بداية هذه الأحداث، ووصل عدد المصلين إلى ما يقرب من (٥٠) شخصاً على الأقل. لكن بعد (حادثة القتل) منع الآباء أولادهم من حضور الصلاة في الكنيسة.

تم القبض على (جديون ومن معه) يوم ١٥ أغسطس ١٩٦٤ قبل دقائق من تمام الساعة السابعة. وكان ذلك بعد عودة (جديون ومن معه) من العمل في مزارعهم حيث إجتمعوا لتناول الطعام، في منزل

القس جديون أدوك حسب عادتهم دائماً، ولم يكن جديون ادوك متزوجاً مع أنه بلغ (٣٨) سنه من عمره. أما وليم اوليو فقد استأذن للذهاب إلى بيته لأنه كان يشعر بالتعب، وطلب أن يرسل له طعامه في بيته. وقبل أن تـبدأ الجماعة في تناول الطعام رأوا البيت محاطاً بعدد كبير من الجـنود. فخـرج جديـون أولاً ومن خلفه باقي الجماعة ليروا ماذا يحـدث. وكانـت زوجة وليم اوليو واقفه بباب بيتهم ورأت الجنود يقبضـون علـى جديون وعلى كل من كانوا معه. فأخبرت زوجها وطلبـت منه أن يهرب من طريق آخر ولكنه رفض. وعندما نادوا أسـماء المتهمين المطلوب القبض عليهم ولم يكن وليم أوليو هناك، أرسـلوا بعض الجنود إلى بيته وقبضوا عليه. وبعد أن تأكد الجنود من أنهم قبضوا على المتهمين الثلاثة. جديون وسيمون انيانق ووليم اوليو، أطلقوا سراح الباقين.

كـان القـبض على جديون ووليم وسيمون قدتم يوم ١٥ من شهر أغسـطس. وبعـد ثلاثة أيام تم قتلهم ليلاً. وقد سمعنا أصوات البنادق. سـمعناها موجهـة إلـى مركز الإرسالية أولاً. ثم سمعناها ثانية وهى

توجـه إلى الغابه، والثالثة وجهوها إلى النهر. أما الرابعة والأخيرة فقد كانت موجهه على الناس في شكل طلقات مكتومة.

يوم أن قبضوا عليهم، كان ريث كور بابيتى([7]) موجوداً في ملوط، وقدتم قتلهم في نفس اليوم الذي غادر فيه ملوط مساء نفس اليوم.

قـبل إطلاق الرصاص عليهم، سألوهم عن باقي الناس المنضمين لهـم أو معهم ولكنهم رفضوا أن يذكروا أي اسم من أسمائنا، وإلا كان الجـنود قتلونا معهم. وقد وصلتنا هذه المعلومات عن قتلهم في صباح الـيوم التالـي عن طريق المساجين الذين رفعوا الجثث. وأخبرني أحد المسـاجين وهـو من قرية اقد (قرية تابعه للشلك شمال مدينة ملكال) وكـان قـد شـارك في جر الجثث لرميها في مياه النهر، أخبرنى أن الجثـث أخذوهـا إلـى وسط النهر وربطت فيها أحجار كبيرة حتى لا تطفـو علـى سـطح الماء... لقد جاء هذا السجين لمقابلتي وأنا على شـاطئ الـنهر بين الأعشاب التي هي جزء من عملي في قسم حماية النباتات ليخبرنى بهذه المعلومات.

---

[7] ريث كور هو ملك الشلك- وكلمة "ريث" معناها "ملك" بلغة الشلك.

لكــن جثة سيمون طفت على سطح الماء. وقد عثرت عليها سفينة قادمــة مــن جوبا ومتجهة إلى كوستي. وكانت الجثة طافية أمام مدينة كاكــا. فانتشلها البحارة وسألوا الناس للتعرف على الجثة. ولكن الجميع أنكــروا معرفة أي شئ عن الجثة لأنهم خافوا أن يقبض عليهم لو أنهم أعلنوا معرفتهم لصاحب الجثة.

بعــد حادثــة القــتل بقلــيل، ذهبت وسكنت أنا وأسرتي في منزل سيمون انيانق الذي قتل. لم أشعر بخوف لسكنى في منزل إنسان قتلوه لأن الله أعطــانى قوة أبعدَت عنى الخوف. وبعد أيام من أحداث القتل طلــب منى دانيال يانق وهو رجل كبير في السن مثلى أنا الآن، طلب مــنى أن أذهــب إلــى ملكــال لأحضر مساهمات عضويتها من آمين الصــندوق فــي ملكــال. بعد أن أصبحنا إثنين فقط في ملوط. قال لى دانــيال أنــه لابــد من الذهاب وإحضار المال لنستخدمه. لأن شركاء الخدمة قد ماتوا، ولسنا نعرف بالتأكيد المطلوب منا أن نعمله([٨]).

ذهبــت إلــى ملكال. وتقابلت مع أمين الصندوق الذي قال لي أن اســتحقاقاتنا في الإشتراكات قد تم إستخدامها. فذهبت إلى القس أدوك

---

[٨] يبدو أنهم كانوا يريدون المال لاستخدامه في مجال الإغاثة.

إيــاك راعــى الكنيسة المشيخية وشرحت له الموضوع. فإتصل بدوره بــالقس ماثــيو متيانق الذى كان أمين الصندوق في ذلك الوقت وتبادلا مناقشــة المشكلة. وإتفقا على تسليمى مبلغ (٥٠) جنيهاً مع واحد جنيه لتغطية مصاريف سفرى وطعامي. على أن نتقاسم أنا ودانيال الخمسين جنيهاً. وقد كانت لها قيمة كبيرة في ذلك الوقت.

بعد عودتى إلى ملوط. تم نقل جنود إلى ملوط. وعلمت أن الجنود سألوا إذا كان هناك من يريد أن يصلى في الكنيسة فأجابهم البعض أن هــناك عــدد قليل من الناس ممن لهم صلة بالكنيسة. فكتبوا خطاباً إلى الــرجل العجوز دانيال يانى يعلنون فيه أن الكنيسة يمكن أن تعود إلى نشــاطها، وقــالوا أن الجــنود السابقين أخطأوا بقتلهم المسيحيين ومنع الكنيســة مــن مــزاولة نشاطها. وإستدعانى دانيال يانى، فذهبت إليه وأخبرنــي بالخطاب الذي أرسله الجيش. وبدأ فعلاً نشاط الكنيسة مرة أخــرى. ولكــن بعد إجتماعنا في الكنيسة ثلاث مرات في أيام الأحاد، جــاء واحــد من أعضاء الكنيسة وأخبرني أن الإضطهاد سيعود مرة أخــرى على الكنيسة. فأسرعت بجمع حاجياتى وأخذت أسرتى وذهبت إلــى قــرية قريــبة تابعة للشلك. ثم عدت إلى ملوط. ولما إقتربت من

الكنيسة وجدتها محاطة بالجنود. نفس الجنود الذين طلبوا منا أن نعود لممارسة نشاطنا في الكنيسة، ها هم يحيطون بالكنيسة في إنتظار حضورنا للصلاة للقبض علينا.

فغيرت طريقي وذهبت إلى دانيال يانى أساله: هل نذهب إلى الكنيسة ولا نخاف الجنود؟ فقال لي: هذا غباء يا ولدى– ألا ترى الجنود يحيطون بالكنيسة؟ هل تريدنا أن نموت مثل الذين ماتوا؟ فتركته ورجعت إلى بيتى بعد أن تبين لنا أن نفس الجنود الذين طلبوا منا أن تعود الكنيسة إلى نشاطها، هاهم يحيطون بالكنيسة. وتأكدنا من أنها كانت خدعة من الجيش للتعرف على من يترددون على الكنيسة. في أحد الأيام وأنا في قرية الشلك، خرجت للصيد. سمعت من الناس القادمين من ملوط أن هناك شائعات تقول بأن أي قرية فيها كنيسة تمارس نشاطها، سوف تحرق القرية بمن فيها. وأثارت هذه الشائعات الخوف في نفوس الكثيرين. فكانوا يبتعدون عنا نحن أبناء الكنيسة. فنقلت أسرتي إلى قرية بعيدة من قرى الدينكا. ولما سمع الأهالي هناك بأننا من المصلين في الكنيسة، تركوا القرية وذهبوا إلى قرية آخرى. لقد واجهنا الكثير من المشاكل.

عندما كنت أخرج للصيد، كنت أعود إلى القرية في منتصف النهار عندما يكون الجنود قد غادروا القرية. فأسلم ما معي من سمك للناس الذاهبين إلى المدينة لبيعه حتى أستطيع أن أجد ما يكفى لطعام أسرتي وأطفالي.

وفى أحد الأيام جاء رجل بوليس وكانت تربطه قرابة بزوجتي، جاء يسأل عنى فقالت له زوجتي أنني خرجت للصيد وأنني أرجع عادة في منتصف النهار عندما يكون الجنود قد غادروا القرية. فقال لها رجل البوليس أن تخبرني بألا أرجع للصيد لأنه سيعود هو وبعض رجال البوليس ليأخذونا إلى سفينة ستصل إلى ملوط قادمه من كوستى فى مساء نفس اليوم لنتمكن من السفر عليها إلى ملكال. وفعلاً. عندما عدت حوالى السادسة مساءاً من الغابة حيث كنت أختبئ حضر ماياك نسيبى حوالى الساعة السابعة ومعه ثلاثة من رجال البوليس ليأخذوني إلى السفينة. وعندما دخلت السفينة تحررت من كل خوف. وعندما وصلنا إلى ملكال وجدنا سفينة مجهزة لتكون مستشفى عائم. لكن المتمردين (الانيانيا) هاجموها ونحن ركاب سفينة كوستى منعونا من دخول المدينة لبعض الوقت.

رجعت بعد مضى وقت قصير على سفينة متجهة نحو الشمال. كنت أخشى أن تصل السفينة إلى ملوط أثناء ساعات النهار خوفاً من تجدد المشاكل. لأنه لو لمحنى الجنود الذين قتلوا زملائى فى الإيمان، لقتلونى أنا أيضاً. ولكن عناية الله كانت معي. فقد وصلت السفينة ملوط الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وغادرتها الساعة الرابعة. فشكرت الله كثيراً. وفى الساعة الخامسة وصلت السفينة إلى كاكا. فشكرت الله اكثر فاكثر. وقلت لنفسى مطمئناً – الآن وصلنا إلى شمال السودان.

نفس رجل الأمن الذي كان قد قبض على زملائي المسيحيين في ملوط تم نقله إلى كاكا. ومن كاكا نقلوه إلى قيقر. وهاهو يركب السفينة من كاكا للذهاب إلى قيقر. وسألنى إلى أين أنا ذاهب. فقلت له إننى ذاهب إلى كوستى. فوجدته يهددنى أننى لونزلت فى الرنك فسوف أموت. الأمر الذي أثار دهشة المسافرين معي وكانوا من بانيدواى باجور، فسألونى لماذا يتحدث إلىّ هكذا؟ فقلت لهم أن الأمر مجرد خلاف دينى. فهو نفس الرجل الذي قتل أعضاء

كنيستى. وعندما وصلنا الرنك حوالي الساعة الرابعة صباحاً، نزل بعض الركاب، كما نزل الأشخاص الذين كانوا معي.

فإذا برجل الأمن يهددهم بأنه سيأمر بالقبض عليهم إن لم يخبروه عن مكان إقامتى. وكان ذلك في قيقر. هنا ظهر رجل بوليس برتبة شاويش وإسمه عثمان جاء يسأل رجل الأمن: لماذا يهدد بالقبض على مجموعة من شباب الشلك؟ وكان رد رجل الأمن أنه يهددهم بالقبض عليهم لأنهم يسافرون مع رجل بطال. فقال شباب الشلك للشاويش أنهم لم يتقابلوا معي إلا على سطح السفينة. وهنا رفض عثمان تنفيذ أمر القبض على أولئك الشباب لأنهم يحملون تصاريح سفر من مكتب البوليس للسفر من ملكال، بحسب قوانين تلك الأيام. وقد عرفت كل هذا من الشباب أنفسهم عندما تقابلت معهم في أمبده في ام درمان حيث قصّوا علىّ ما حدث لهم بسبب وجودى معهم على السفينة.

س : ما هو إسم ذلك الرجل الذي تقول عنه أنه رجل أمن؟

ج : إسمه منصور من عرب سالم.

س : وما هو إسم والده؟

ج : لست أدرى.

في الخرطوم، تقابلت مع نفس الشخص الذي كنت أعمل معه في ملوط وأخبرني أن أذهب إلى الدويم لأقوم بنفس العمل التابع لقسم (حماية النباتات) فذهبت إلى الدويم عام ١٩٦٥. وفى عام ١٩٦٨ إشتركت مع القس جون كنق فى إنشاء كنيسة مشيخية فى الدويم. ثم سافر جون كنق إلى الخرطوم فى نفس العام، وبقيت أنا مع شخص نويراوى يدعى ديفيد كوات. وفى عام ١٩٦٩ نقلونى إلى الرنك. وفى الرنك تقابلت مرة أخرى مع رجل الأمن الذي تسبب في موت الناس في ملوط. ولكن فى هذه المرة كانوا قد فصلوه من العمل الحكومى بسبب إشتراكه في محاولة الإنقلاب الشيوعى التي قام بها هاشم العطا عام ١٩٧٩. فرجع إلى الرنك ليعمل بالتجارة.

وعندما عادت فصائل الانيانيا من الغابة، بدأ يخاف منى ولم يعد يقترب منى- إلى أن رأيت نفس الرجل في مستشفى الرنك حيث

كان يعانى من مرض صدرى. وفكرت أنني لو تحدثت مع بايو ياكوان دينق[9] لأخبره أن هذا الرجل الذي قتل شقيقك جديون. لأمر بايو بقتل الرجل، لأن بايو كان يتمتع بنفوذ كبير في الرنك في ذلك الوقت. ولكن- لأنى شخص يخاف الله. قلت لنفسي: عندما قتل قايين شقيقه هابيل، تركه الله ولم يفعل له شيئاً. عند ذلك تركته عشان خاطر ربنا.

بعد الإنتهاء من تسجيل الأقوال، إحتج بول تشائق جوك لأن قادة الكنيسة أعطوا القليل من الإهتمام بأحداث هذا الإضطهاد والإستشهاد، كما أنه أوضح بإصرار أنه من الخطأ أن نكرم جديون ادوك فقط كشهيد، لأن الشخصين: وليم اوليو وسيمون انيافق عانوا معاً وماتوا معاً. هؤلاء الشهداء الثلاثة رفضوا ذكر أى أسماء من

[9] بايو ياكوان ديق كان ضابطاً في الجيش- ووصل إلى رتبة عالية في القوات المسلحة السودانية في عهد الرئيس نميرى عام ١٩٨٩م. وهو شقيق القس جديون ادوك دينق- بل كان يشبهه تماماً.

شركاء الخدمة- هكذا أنقذوا حياة كثيرين من المسيحيين العاملين في كنيسة المسيح بما في ذلك تشانق جوك. الشاهد. أنا.

جديـــون ادوك لم يتزوج، ومع ذلك كان له أبناء كثيرون. فهو يعيش في الكلية التي سميت بإسمه. والتي بدأت أولاً في ملوط- ثم إنتقلـــت إلى أم درمان. وتقوم كلية جديون للعلوم اللاهوتية بتدريب المبشـــرين والقساوســـة في كنيسة السودان الداخلية وكنيسة المسيح السودانية بجانب كنائس أخرى كثيرة "بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضـــل مـــن قايين. فيه شهِدَ الله لقرابينه.وبه وإن مات يتكلم بعد." (عبرانيين ١١ : ٤)

الأب ساترنينو
الكاهن والقائد والثائر



تأليف : نينو كونتران
إعداد : اندرو هويلر
ترجمة : زكرى رزق جيد

الأب ساترنينو
كاهن وقائد وثائر
هكذا كان الأب ساترنينو ([1])

بقلم : نينو كونتران
ترجمة : زكرى رزق جيد

القيادة في الكنيسة في زمن الأوقات الصعبة، تأخذ صوراً وأشكالاً تماثلها في الصعوبة. فالبعض يهتم بتسيير دفة الكنيسة في أوقات الخطر، وهذا أمر شديد الأهمية. ولدينا مثال على ذلك في شخصية (ألينانا) كبير أساقفة الكنيسة الأسقفية. والبعض الأخر يفتش عن طرق أخرى. وهؤلاء يشبهون (حزقيال النبي) الذي كان مكلفاً بتوصيل رؤياه إلى شعب أخذ من أرضه ليعيش في المسبى البابلى. كانوا في موقف جديد وغريب. يحتاج إلى كلمات جديدة، وإجابات جديدة،

[1] هـذه صفحات مأخوذه من قصة الأب ساترنينو التى سجلها الكاتب نينو كونتران فى كتابه (هم الهدف) الذى نشرته هيئة النشر لأخوات بولس .

وطرق جديدة. وربما يحتاج الموقف أيضاً إلى أخطار جديدة. وقد وجد الشعب السوداني في الجنوب مثل هذا القائد في الأب ساترنينو. وهذا ما قالته جريدة (اليقظة) التي تصدر في جنوب السودان باللغة الإنجليزية (the vigilant) عندما كتبت يوم وفاة الأب ساترنينو: {سيكون الأب ساترنينو بطلاً أسطورياً. وبطولته الأسطورية تتلخص في أنه كان يكره الظلم، والعنصرية، وحياة البؤس، بنفس القدر الذي كان فيه يحب العدل والإنصاف والمساواة والرخاء. وسيظل شعبه مجاهداً في سبيل تحقيق العدالة والمساواة والرخاء.}

وما قالته الجريدة عن الأب ساترنينو كان هو الحق. فهو فعلاً كان يكره الظلم، ولكن لسوء الحظ، لم يصبح الأب ساترنينو بطلاً أسطورياً، بل على العكس. لقد طواه النسيان. ولم يستمر إلا العدد القليل من أتباعه من أبناء جنوب السودان في جهاد من أجل تحقيق العدالة والرخاء والمساواة التي ناضل من أجلها الأب ساترنينو. أما الباقون فقد استسلموا للأمر الواقع.

ساترنينو الكاهن:

كــان الأب ساترنينو أولاً وقبل كل شئ. كاهناً كاثوليكياً. وكان من أوائــل الكهــنة الوطنييــن فــي جنوب السودان، وواحد من الذين لم يستســلموا أبــداً. فقــد كتب عنه كونتران (contran) يقول: {لاهور هيلــنجي. ابــن لوالديــن هما زيلان واكسينون. ولد عام ١٩٢١ في اورانــيو (oronyo) وهى قرية كبيرة في منطقة لوتاكو(Lotuko)التي تــبعد حوالــي أربعين كيلو متراً من مدينة توريت (Torit) في جنوب السودان. نال المعمودية وهو في سن العاشرة في توريت وتَسمَّى باسم ساترنينو (saturnino).

وقد أظهر رغبة مبكرة في أن يكون كاهناً، ولذكائه وطموحه أنهى المــرحلة الابتدائية في سنتين فقط بدلاً من الأربع سنوات المقررة لهذه المــرحلة التعليمية. وبعد أن أكمل دراسته في كلية اللاهوت التجهيزية فــي قــالو(Gulu) في يوغندة، حيث درس العلوم اللاهوتية والفلسفة، رسم كاهناً في ٢١ ديسمبر ١٩٤٦.

وهكــذا، نجد الشاب ساترنينو المفعم بالذكاء والعقل الفهيم قد ميّز حــياته بالــتفوق والــنجاح بجانــب الــتزامه القوى وتمسكه بكهنوته الكاثوليكــي. فقــد كان لهذا الكهنوت أثره على حياة ساترنينو من كل نواحــيها. ومع أنه ترك العمل الكهنوتي في الأبرشية، إلا أنه لم يتخلى عــن الكهــنوت ورتبــته الكهنوتية. فقد كان الأب ساترنينو من أوائل الكهــنة السودانيين، حيث أنه رسم كاهناً في نهاية عام ١٩٤٦. فقضى عامــه الأول في كابويتا (Kapoeta) ثم انتقل إلى ليريا (Lirya) في شرق الإستوائية.

كانــت فــترة عمل ساترنينو في ليريا، فترة تستحق الذكر عند كل أهــل لــيريا. فهــو أول كاهن سوداني أسود يعمل في ليريا. وأكثرهم تقدماً. وأعمقهم إيماناً. وشهادة مارينا لوهيد (Marina Lohide) تعلن أنــه "كان محبوباً من الجميع أكثر من كل الكهنة الذين عملوا في ليريا فــي ذلك الوقت" كان ساترنينو ينتمي إلى اللوكويا. وكانت لغته قريبة جــداً من اللوكوبا. وكان أهل ليريا يذكرونه بصفة خاصة لكونه إنساناً

اجتماعـياً قريباً جداً من الناس، يشارك في كل نشاطاتهم: في الصيد، وفـي الزراعة، وفى الاحتفالات الدينية والقبلية. وتستطيع أن تجد في مدينة ليريا العدد الكبير من المؤمنين كبار السن الذين يذكرون كيف أن الأب ساترنينو جمع بين التقاليد الأفريقية مع المسيحية ليجعلها مسيحية أفريقـية. ويذكـر له أن (صناع المطر) مع أصحاب(السّحر الأسود) كـانوا يأتون بأدوات سحرهم إلى الكنيسة لنوال البركة مع البذور التي سـوف تـزرع فـي موسم الأمطار. وكان (صناع المطر) في شرق الاسـتوائية اكثر الناس قوة ورهبة. وإليهم يذهب الناس كلما قل المطر أو شـح، لاعـتقادهم بأن (صناع المطر) هم الذين يتحكمون في نزول الأمطـار أو منعها. أما أصحاب (السحر الأسود) فهم الذين يسيطرون علـى أرواح الجبل ويقنعون الناس بأنها أرواح شريرة قادرة على أن تجلـب الشـر على كل من يعارضها. مستخدمين (السحر الأسود) في علاج المرضى كما يدَّعون. وكان دور الأب ساترنينو أن يوفق بين ما كان يؤمن به الناس في الماضي وبين الإيمان المسيحي الجديد.

هـناك موقف أخر للأب ساترنينو. فقد كان له موقف متشدّد ضد التعريب، أعلن ذلك منذ البداية " لا للتعريب". بل رفض رفضاً باتاً أي مناقشـات حـول الإسلام أو العرب في فصول التربية الدينية. وعندما صـدر القـرار بـتدريس اللغـة العربية في مدرسة ليريا، قاد الأب سـاترنينو لاهـور والأب افلينو واني، قادا طلبة المدرسة في مظاهرة ضـد ذلـك القـرار. كما شجّعا الطلبة على مقاطعة الدراسة في اليوم الأول الـذي بـدأ فيه تدريس اللغة العربية في المدرسة. وكان الأب سـاترنينو يعتـبر حكومة السودان المكونة كلها من عرب. هي العدو الأول للمسـيحية. وكـان هذا الاعتبار هو الذي جعله يرفض التعريب بكـل وضوح. لأنه يعلم أن التعريب سوف يقود إلى الأسلمة. وعندما بدأ التمرد في مدينة توريت (torit) وهى ليست بعيدة عن ليريا، وكان ذلك في عام ١٩٥٥، قالوا أن الأب ساترنينو تمكن من أن يخبئ عدداً كبـيراً من العرب لينقذهم من الموت. فهو لم يكن موافقاً على الإطلاق علـى هـذه النوعـية من التمرد التي قادت إلى ذبح العدد الكبير من

العرب وتسببت في إشاعة الفوضى. كما أنه رفض الاتجاه الذي تمسك به السودان بعد الاستقلال، فمع أن الأب ساترنينو قبل منصب الأسقفية فـي أبرشـية رمبـيك عام ١٩٥٦ إلا أنه لم يكن راضياً على أسلوب حكومـة السـودان المستقل في وضع قيادات دينية سودانية في مكان المرسـلين مباشرة، لأنه كان يرى أن الأمر يجب أن يتم بتروي وبعد تدريب وتطوير للقادة السودانيين.

هذا هو الشاب ساترنينو الذي أصبح كاهناً قوياً عاملاً. كرس نفسه لخدمة الجنوب. وعندما حان موعد الانتخابات في جنوب السودان عام ١٩٥٣، تـم انتخاب (٤٠) سودانياً من الجنوب للعضوية في البرلمان: حيـث كونـوا الجـبهة الثالثة من حيث قوتها البرلمانية. غير أنه بعد اختـيار رئـيس الوزراء، تحول اكثر من نصف جبهة جنوب السودان للانضـمام إلـى الأحـزاب في شمال السودان، فخسرت جبهة جنوب السـودان ما بين ١٥– ٢٠ عضواً. وهنا وضح جلياً أن السودانيين في الجـنوب كانـت تنقصـهم القيادة. ومع أن الأب ساترنينو كان يشغل

منصباً كهنوتياً عالياً. وعليه مسئوليات كبيرة في رومبيك، إلا أنه طلب مـن رئاسة كنيسته أن تسمح له بالانضمام إلى الجمعية التشريعية عام ١٩٥٨، التـي كانت مكلفة بوضع الدستور السوداني. وفعلاً تم اختيار الأب ســاترنينو وباوليــنو دوقال كأعضاء في الجمعية التشريعية حيث أثبت ساترنينو أنه قوة شامخة يعمل لها ألف حساب.

ساترنينو القائد:

كثـيراً ما كان يزعج رئاسة الكنيسة الكاثوليكية وجود "كهنة في المـيدان السياســي" ومع ذلك، ولأن البلاد تتعرض للخطر فيما يبدو، سـمحت رئاسـة الكنيسـة بذلك. وبعدها تم انتخاب ساترنينو ليكون" الـناطق الرسـمي للكنيسـة الكاثوليكية في وضع الدستور السوداني. وتطـوع طـلاب الجامعـات مـن الجـنوب في المساعدة: فاجتمعوا بالأعضـاء الجـدد في جبهة الجنوب، حيث قادوهم بعيداً عن تملقات وإغراءات الأحزاب في شمال السودان. وكان الأب ساترنينو هو الذي وحـد أهدافهـم، ولـم يكن هذا أمر هيّن. لو لا أن الأب ساترنينو كان

مصـــدر هـــذا الاحـــترام وهذا الخضوع، لأن الأب ساترنينو بدأ يهتم بحقـيقة الواقــع الذي يصلح للسودان ككل. كان ساترنينو عاملاً يجيد العمـل ومفكراً يحسن التفكير. كانت النقطة الجوهرية التي يتمسك بها أبـناء الجـنوب تنحصر في "الحكم الفدرالي" أي حكومة إقليمية لأبناء الجنوب يكونون هم أصحاب السلطة فيها.

لـم تصـل الجمعـية التشـريعية إلى اتفاق حول الدستور، وبدأ الاقتصــاد يمـر بمرحلة خطيرة. زد على ذلك أن عبد الله خليل سلم الحكـم للجـيش برئاسة الفريق إبراهيم عبود. واصبح السودان تحت الحكـم العسكري الذي حل الجمعية التشريعية. وفى جوبا، عقد الحاكم العسكري على بلدو اجتماعاً مع أعضاء الجمعية من أبناء الجنوب قال فيه: "ليكن في علمكم أن الجنوب لم يقبل بوحدة السودان. وهذا أمر لا يحـتمل. ولن نقبل أي إشارة إلى "حكم فدرالي" أو "انفصال". لن نقبل أي تدخـلات في السياسة. ومع أن حديث الحاكم العسكري قد أفزع أبــناء الجنوب، إلا أنهم قرروا إعطاء فرصة أخرى للتوجه الجديد. وهنا رجع الأب ساترنينو لعمله الكهنوتي في ابراشية ياى (yei).

سـريعاً مــا فاق قادة الجنوب من أحلامهم ، فنظام الحكم الجديد يسـعى لتعريـب كل نواحي الحياة بأسرع ما يمكن. ثم بدأت الأسلمة. فالعطلــة الأسـبوعية تغيرت من يوم الأحد إلى يوم الجمعة. وزعماء القـبائل فـي الاسـتوائية وصلتهم كمية من صناديق الويسكي والملابس العربـية (الجلابية) ([٢]) مع دعوة إلى التحول إلى الإسلام. كما تحولت ريـاض الأطفــال إلى (خلاوى)([٣]) في كل أنحاء البلاد كمدخل للتعليم الأساسـي... وهنا طلبت الكنيسة من ساترنينو تولى منصب المطران في الكاتدرائية الجديدة في جوبا ولكنه رفض.

كـان الأب سـاترنينو يفكـر بينه وبين نفسه عن المعنى الحقيقي لإرســاليته حـول الحرية الدينية والمدنية لشعبه. فوجد أن هذا المعنى يحـتاج إلى الجانب السياسي، لأن اهتمامات المجموعة المسيحية يمكن ضمانها وتأمينها فقط في جنوب السودان المتحرّر. فكثيراً ما كان الأب

---

[٢] الجلابية: أهم الملابس العربية. وهى في السودان تكون عادة بيضاء .

[٣] الخلوة: لتعليم القرآن. وهى المدخل للتعليم الأساسي بدل رياض الأطفال .

ساترنينو يقول: ما الفائدة في معمودية الأطفال إذا كان من الصعب توجيههم في المستقبل؟ أو إذا كان الحصول على العمل يتطلب منهم أن يصبحوا مسلمين؟

في مساء ٢٣ ديسمبر ١٩٦٠ انتشرت إشاعة تقول أن ٦ من النواب([٤]) الجنوبيين قد اختفوا، ومن بينهم الأب ساترنينو. وقد عرف فيما بعد عن طريق أحد أصدقائه. أنه ترك منزله بحجة الذهاب لزيارة مريض. وعلى بعد بضعة كيلو مترات في الطريق إلى كاجوكاجي، كان أحد رجال الدين في انتظاره بدراجته. وهكذا استطاع الأب ساترنينو أن يعبر الحدود إلى يوغنده حيث لجأ الآلاف من أبناء الجنوب وهناك يعيشون في أمان ([٥]) .

بعد هروب الأب ساترنينو من السودان، كان عليه أن يوظف مواهبه في طريقة جديدة للغاية. كانت رغبته الملحة أن يكرر ما فعله

---

[٤] هم أعضاء الجمعية التشريعية التي كانت مكلفة بوضع دستور السودان .

[٥] هذه العبارات مأخوذه من كتاب " هم الهدف " للمؤلف كونتران والتى اقتبسها من كتاب " نبى من أجل افريقيا " للمؤلف زيلو (xillo) صفحات ٣٨ – ٣٩ .

سابقاً، وهو أن يجمع القيادات الجنوبية معاً. وقد نجح في ذلك إلى حد ما. ولكن بعد متاعب ومشقات كثيرة. فهم يعرفون ما يثير أبناء الجنوب من حكم العرب لهم، ولكنهم كان ينقصهم المال وينقصهم التخطيط لتحقيق أهدافهم. ومن المتاعب التي قابلت الأب ساترنينو، توضيح مشكلة أبناء الجنوب للآخرين، وكيف يستطيع أن يقدم شيئاً لشعبه ليعيشوا أحراراً في وطنهم. ولما جاء عام ١٩٦١ بدأ نضال الدول الأفريقية للحصول على هذه الحرية. كان نضالهم ضد إمبريالية الرجل الأبيض، وضد الحكم الأجنبي. وفى بعض الدول الأفريقية التي استطاعت أن تحقق القليل للحصول على الاستقلال عن الأقلية البيضاء التي كانت تحكم تلك الدول خصوصاً في الجنوب الأفريقي مثل: روديسيا، وجنوب أفريقيا. والمستعمرات البرتغالية. ولم يكن في حسبان أحد أن يأتي الاضطهاد الأفريقي من الأفارقة. فعندما زار السيد محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان إحدى دول الجوار وهى كينيا، سألوه هذا السؤال: "هل المشاكل التي يعانى منها السودان يعود سببها إلى التمييز العنصري؟" وهنا شمر محجوب زراعه بلونه

البنـــي الغـــامق، ثم قال: "إلى أي مدى يمكنني الحياة في جنوب أفريقيا الأسود الذي كان يناضل ليتحرر من اضطهاد الرجل الأبيض وحكومة الـــرجل الأبيض؟ فأصبح الهدف المطلوب تحقيقه أمام الأب ساترنينو ينقســم إلـــي شقين: الأول: توحيد قيادات الجنوب معاً، والثاني: شرح مشـــكلة السودان للعالم. فهل يستطيع ساترنينو تحقيق ذلك في السنوات الباقية له على قيد الحياة؟

أدرك الأب ساترنينو منذ بداية نضاله أن جنوب السودان لا يحظى بصـــداقة أي دولة من دول العالم الغربي. وهذه يوغنده التي لم تكن قد نالـــت الاســـتقلال في عام ١٩٦٠، وأن حكامها الإنجليز لن يقدموا أي مساعدة. فبريطانيا كانت تستعد لمغادرة أفريقيا لا أن تعود إليها مرة أخرى. وأدرك أن الولايات المتحدة مع بعض الدول القوية في أوربا يكـــتفون بالمشـــاركة الوجدانـــية والنظر إلى جنوب السودان بعين العطـــف. ولكنهم اعتبروا مشكلة السودان مشكلة داخلية تختص بها الشئون الأفريقية.

وبالمثل كانت هناك مشاركات وجدانية كثيرة من دول الجوار. من جمهورية أفريقيا الوسطى، والكنغو، ويوغنده، وكينيا وأثيوبيا، جميعها فتحـــت حدودهـــا أمـــام أبناء الجنوب الذين لجأوا إليها باستثناء كينيا.

وعـــندما قامت ثورة الأنيانيا (٦) في الجنوب، مدت يوغنده وأثيوبيا يد المســـاعدة، ولكن بطريق غير رسمي. لم يكن جنوب السودان يحظى بصـــداقة رســـمية من الدول الأخرى إلا بالقدر القليل جداً. وكان الأب ســـاترنينو مـــن أوائـــل القادة الذين أدركو تلك الحقيقة، وكان عليه أن يصل إلى الطريقة التي بها يتصرف أمام هذا الوضع.

فـــي مايو ١٩٦٣ عقدت منظمة الوحدة الأفريقية اجتماعاً هاماً في أديس أبابا حضره ملوك ورؤساء الدول الأفريقية وأعد الأب ساترنينو نفســـه لحضـــور هذا الاجتماع الهام ليعرض قضيته. فبجانب الأوراق والـــزيارات والمناقشـــات، كتـــب ساترنينو كتاباً تحت عنوان "مشكلة جنوب السودان" وتم نشره تحت اسمين مشهورين من قادة الجنوب هما

٦ بدأت ثورة الانيانيا عام ١٩٦٣ وانتهت أخيراً عام ١٩٧٢ .

جوزيف اودوهو، ولیم دينق، وذلك لتحاشى أي اتهام يوجه إلى الكنيسة أو إلى الكاهن الذي يشغل نفسه بالسياسة، واليك ما قاله ساترنينو في كتابه: " إن قضية جنوب السودان ليست قضية سياسية بالمعنى المعروف، وليست هي قضية دويلة تدور في فلك دولة كبرى كما هو الحال مع دول الاتحاد السوفيتي. إنها أكبر وأعظم من ذلك. إنها قضية حياة أو موت، قضية عبودية عنصرية".

"فتصرفات السودان الشمالي في الوقت الحاضر، والسياسة التي يطبقونها على الجنوب، تقودنا إلى استنتاج واحد وهو أنهم يريدون تدمير شخصيتنا الأفريقية وهويتنا السودانية ليحل محلها التعريب والأسلمة لجنوب السودان ليدقوا إسفيناً عربياً في قلب القارة الأفريقية.

وفي إحدى قوافل انتخابات ١٩٥٨، وكان على رأسها علي عبد الرحمن. وهو خريج الجامعات الإسلامية في القاهرة، وأصبح فيما بعد وزيراً للداخلية، أشيع أنه قال في الأبيض: "السودان هو جزء مكمل للعالم العربي، وعليه: فلابد من الخضوع لقيادة الزعيمين المسئولين

عن القيادة الدينية الإسلامية في السودان– ومن يعترض على ذلك، فليترك البلاد".

وقد يكون الأب ساترنينو اكثر وضوحاً مع القيادة الكنسية في روما فقد جاء في إحدى مذكراته التي أعدها قبل زيارته عام ١٩٦٤:

" نحن نعرف جيداً أن المسئولية الرئيسية في تحرير جنوب السودان من الاضطهاد هي مسئوليتنا نحن. ولهذا السبب نحن تركنا السودان لنجمع وننظم اللاجئين. واثقين من وقوف شعبنا الموجود في السودان معنا. ولكننا تعوزنا المساعدات والاعتمادات المالية. ولذلك فنحن في حاجة إلى تشجيع ومسانده من الخارج.([٧]) "

"فإذا لم نتمكن من الحصول على المساعدات اللازمة، فسنجد أنفسنا مجبرين على اتباع نشاط سيأسى جديد ونلحق بشعبنا في الغابات. ومن جانبنا نحن، فلن تقدر الضغوط الخارجية، ولا التشعبات أو الانحرافات بين أبناء الجنوب، لن تقدر جميعها أن تغير من توجهنا،

[٧] بمعنى أن يكون لديهم العون المالي والتأييد السياسي من الخارج.

لأننا نفضل الموت ونحن نقاتل، من أن نخدم العرب في السودان أو السياسات الخارجية."

تحول الأب ساترنينو بعد ذلك إلي المشكلة الدينية في السودان. فالجنوب في رأيه، يواجه العالم الإسلامي كله. وفى هذا المعنى يقول الأب ساترنينو في مذكراته:

"من المعروف جيداً أن سياسة حكومة السودان تهدف إلى إبادة المسيحية في الجنوب، ولكي تحقق هذا الهدف، تعتمد على خطتين: الأولى تتم على المدى القصير، والثانية على المدى الطويل. على أن تتم الخطة الأولى في أسرع وقت ممكن بالتخلص من الكنيسة في الجنوب. ولتنفيذ ذلك وضعت كل الإمكانات من تهديد وإكراه وتعذيب. وقد يصل الأمر إلى الموت والإبادة الجماعية."

ولآن حكومة السودان تهدف إلى استئصال المسيحية من جذورها في الجنوب، فقد بدأت بنشر الإسلام. والغريب أن الحكومة نجحت في إقناع العالم الخارجي بسياستها المليئة بالنفاق. فهي تنكر وجود أي

اضطهاد ديني في الجنوب، وتعلن في كل مناسبة وجود حرية العبادة وحرية الأديان لجميع المواطنين مدعية أن هذا حق لا ينكره أحد، وأنها تقبل أي خطة للوساطة، ولكن الحقيقة تقول أن حكومة السودان لن تتراجع عن هدفها. وكل ما تحتاج إليه هو الوقت لملاشاة المسيحية في الجنوب وإحلال الإسلام بأسرع وقت ممكن.

أما الخطة الثانية الطويلة الأمد، فهي تأتى بعد أن تتم أسلمة السودان وتعريبه. عند ذلك يمكن للسودان أن يكون نقطة انطلاق الإسلام في كل أفريقيا السوداء الواقعة جنوب خط الاستواء. وهذه الخطة يؤيدها ويساندها كل العالم الإسلامي. وقد تسببت سياسة حكومة السودان هذه في موت الآلاف من أبناء الجنوب وهجرة اللاجئين من أرضهم التي وصلت إلي مئة ألف لاجئ انتشروا في الدول الأفريقية مثل: يوغنده، كينيا، الكنغو، جمهورية أفريقيا الوسطى وأثيوبيا. حتى أن الكثير من قرى الجنوب تحولت إلى رماد بعد أن أحرقها جنود الشمال العرب حقداً وغلاً وانتقاماً. والذين نجوا وتمسكوا بالبقاء في

الجنوب، سكنوا في الأماكن البعيدة يعيشون في معاناة لنقص الكثير من أهم لوازم الحياة.

الأمـــر المضحك في القضية، أن وزير الدفاع السوداني ذهب إلى ألمانيا الغربية ليطلب مساعدات في شكل أسلحة، وعربات، ولوارى، وطـيارات لضــرب الجــنوب. ووصــلت اللوارى الألمانية فعلاً للســودان . أليســت هــي مأساة أن تقوم دولة مسيحية مثل ألمانيا بالـتعاون مـع حكومــة إسلامية تخطط لإبادة جماعية في الجنوب بغرض القضاء على المسيحية هناك؟؟

لقــد تــم القضاء على المسيحية في الكثير من دول شمال أفريقيا، فهــل ســينجح العــالم الإسلامي مع حكومة السودان في القضاء على المسيحية في دول وسط أفريقيا؟ والإجابة عن هذا السؤال تتوقف على العالم المسيحي. ويمكننا إدراك قوة المأساة في جنوب السودان بصورة أوضــح عــندما نــدرك مدى الظلم الواقع على بعض الدول الأفريقية الأخــرى مثل: جنوب أفريقيا، انجولا، موزمبيق وروديسيا وكيف أنهم

يحظــون بــالعطف مــن عدد كبير من دول العالم التي تقف معهم في نضــالهم للتحرر من عبودية واستعمار الدول الغربية لهم. أما الأفارقة الذيــن يعيشون في جنوب السودان فهم أقل حظاً، لأن الشرق والغرب يصر على أن قضية جنوب السودان مسألة أفريقية. وعلى جانب آخر، هــناك بعــض الــدول الغربية تساعد حكومة السودان سراً في تحقيق سياســتها. مكتفية باعتبار أزمة الجنوب أزمة تدعو إلى الأسى. ولما انعقــد اجتماع منظمة الوحدة الأفريقية التي تسعى إلى توحيد الدول الأفريقــية في وحدة واحدة، أعطت أصواتها للقضايا الأكثر صخباً مثل (جنوب أفريقيا، انجولا، موزمبيق، وروديسيا) أما قضية جنوب السودان فقد اعتبروها قضية داخلية ."

وهنا جاء التحذير الأخير الذي وجهه الأب ساترنينو إلي كل العالم المســيحي – حيــث يقــول: " فماذا بعد؟ إذا لم يظهر العالم المسيحي موقفــاً مسيحياً وتعاطفاً مع الكنيسة المضطهدة في السودان، فقد يصل المســيحيون الســودانيون إلــى استنتاج خاطئ بأن المسيحية تقف مع

القوى دون الاهتمام بالمسيحيين الذين يضطهدون لتمسكهم بالإيمان المسيحي، وهذا الاستنتاج أكثر خطراً على الكنيسة من تهديد الدين الإسلامي نفسه."

ومع أن الأب ساترنينو وضع قضية جنوب السودان في أقوى صورة ممكنة، إلا أنه ولسوء الحظ لم يجد من الدول الغربية القوية. ولا من الدول الأفريقية التي نالت استقلالها حديثاً، أي استماع أو انتباه. وقد كان الآب ساترنينو يتوقع ذلك، خصوصاً وأن الكنيسة في الجنوب كانت تستمع إلى اكثر من صوت. فمع أن ساترنينو كان يشعر في البداية بالحاجة إلى خدمة المرسلين في الجنوب، إلا انه غير موقفه فيما بعد وبدأ يشعر بالضيق من وجود المرسلين. وشاركه في هذا الرأي عدد كبير من أبناء الجنوب، الذين شعروا أيضاً بتواطؤ المرسلين مع الحكومة" مفضلين الاهتمام ببقائهم في السودان عن أي شئ آخر" مع أن هذا الشعور تغير كثيراً بعد طرد المرسلين في مارس ١٩٦٤.

كان التحدي أمام ساترنينو كقائد، هو أن يقود أبناء الجنوب الذين هربوا من السودان وأن يوحد القيادات السودانية الجنوبية كما حدث في عام ١٩٥٨. وكان كل عمل من هذين العملين له متاعبه ومشقاته. فمع أن ساترنينو تمكن من الحصول على تأشيرة إقامة في يوغندة بعد هروبه من السودان، إلا أنه ضاق بتواجده في كمبالا فسافر إلى تنزانيا، وهناك شعر بالضيق بتواجده في دار السلام. وفى ١٩٦٢، سافر إلى الكنغو (زائير) ولكنه شعر بالخطر من وجوده هناك، غير أنه تقابل في كنشاسا مع جوزيف اودوهو وكذلك وليم دينق، واستطاعوا تكوين المنظمة أو الحزب الذي عرف فيما بعد بحزب سانو (SANU) " الاتحاد القومي السوداني الأفريقي" عام ١٩٦٥، على الأمل المرجو أن يتحقق ظهور تسوية للقضية ولكن للآسف، حدث الانشقاق بين القادة من أبناء الجنوب، حتى في حزب سانو (SANU) نفسه.

ساترنينو الثائر:

"نحن نعرف جيداً أن المسئولية الرئيسية في تحرير جنوب السودان من الاضطهاد، هي مسئوليتنا نحن" (من مذكرة لساترنينو إلى روما عام ١٩٦٤).

في الجزء الأخير من عام ١٩٦٣، بدأت حرب الغابات في جنوب السودان، بدأت بالثوار الذين عرفوا فيما بعد بالأنيانيا. ويعود الفضل إلى تكوين فرقة أو فصيلة من فصائل الأنيانيا. إلى الأب ساترنينو. ولكن كيف تم ذلك، فالأمر غير معروف. لكن ساترنينو كان ملتزماً مع بعض القادة من أبناء الجنوب بالنضال المسلح. كان الأب ساترنينو يعلم أن القضية سوف تحتاج إلى نضال مسلح فيه يجب أن يعتمد جنوب السودان على نفسه. ففي تلك الأيام لم تكن أفريقيا مليئة بالسلاح. والجيوش نفسها كانت صغيرة. وكان على الأنيانيا أن تحصل على سلاحها بسرقة السلاح. أو بالاستيلاء على مراكز البوليس. وفجأة حدث الأمر الغير متوقع، فقد سقط نظام الحكم العسكري في السودان الذي كان برئاسة الفريق إبراهيم عبود. سقط لعدم رضاء الشعب عليه.

وكانت فصائل الثوار (الذين أطلق عليهم بالمتمردين) في خلافات. ولم تكن فصائلهم في وحدة حقيقية، فقد أصبح الرأي السياسي في الجنوب رأياً مشوشاً. ويفسر كونتران ذلك بقوله: " عندما سقط نظام حكم عبود الدكتاتورى في ٢١ أكتوبر ١٩٦٤، قبل بعض السودانيين اللاجئين خارج البلاد، قبلوا دعوة الحكومة الجديدة في الخرطوم للعودة للبلاد لبداية حوار جديد مرة أخرى، إلا أن الأب ساترنينو لم يتجاوب مع هذه الدعوة حيث يقول:" بالنسبة لنا نحن في الجنوب، أن نخضع لحكم شيوعي بقيادة حكام عرب، أو أن نستمر تحت سيطرة أي حكومة أخرى من الشمال، فهذا لا يعنى أن تغييراً قد حدث. الذي يحدث اليوم في السودان ليس اكثر من اختلاف التخطيط السياسي للشمال للبقاء في الجنوب " وفى ٦٥/٣/٨ أرسل الأب ساترنينو خطاباً مطولاً لجريدة " الافريكان ستاندارد "African Standard" يقول فيه: "إذا لم تتمكن الأحزاب السياسية في الشمال من التفكير جدياً وبأسلوب واقعي في قضية الجنوب، فإن كل التوقعات

للوصـــول إلى حل نهائي وأكيد وبطريقة ديموقراطية، ستكون بعيدة المنال أن لم تكن في حكم المستحيل."

هذا الموقف هو الذي منع الحركة من الوقوع في شرك المغريات الحكومـــية. ولكن بالنسبة لساترنينو، فقد كان بداية لأكثر المعاناة والألم التي قاساها ساترنينو في حياته. والتي انتهت بموته. وقد عبر ساترنينو عن قسوة تلك الفترة عندما قال:

"نحـــن ندخـــل الآن أقســـى فترة لنضالنا من أجل قضيتنا، عندما يـــتظاهر الســـودان بالديموقراطية الكاذبة، جعل بعض القادة من أبناء الجـــنوب ضعاف النفوس الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم أن يستسلموا أو كـــادوا" حـــتى عـــندما رأى ساترنينو أولئك الذين ارتدوا على أمل الحصـــول علـــى الخـــير والرفاهـــية اكثر في المقاومة، أي رفاهيتهم الشخصية، حتى بعد كل هذا، لم يفقد ساترنينو الأمل. ونجده هنا يقول: "هناك اكثر من طريق للوصول إلى الحرية، وطريقنا نحن أكثر الطرق

صعوبة، ولذلك فعلينا أن نتقبل هذه الحقيقة، وأن نعمل قدر المستطاع". "بل فوق المستطاع"

فـــي مـــارس١٩٦٥. ذهـــب أقري جادين لحضور مؤتمر المائدة المســـتديرة ممـــثلاً لحـــزب ســـانو. وهـــناك أعلن أن الجنوب يطالب بالانفصـــال، ثـــم ترك الاجتماع. وبعده، ذهب وليم دينق رئيس حزب سانو، ليتفاوض حول حصول الجنوب على حريته. أما ساترنينو الذي كـــان القـــائد الفعلـــي مـــن الجـــنوب عام ١٩٥٨، فقد رفض حضور الاجـــتماع، بـــل رفـــض أي نوع من التفاوض. فقد كان يشك في كل الـــنوايا السياســـية التـــي تأتى من الشمال. وللأسف. فقد أثبت التاريخ صـــحة موقف ساترنينو. ففي منتصف عام ١٩٦٥. تلاشى كل أمل في تحقـــيق الســـلام فـــي الجنوب. حتى وليم دينق الذي كان يؤمن بمبدأ الـــتفاوض، واســـتمر في التفاوض، وكانت النهاية أنه مات مقتولاً. أما ســـاترنينو فقـــد اســـتمر فـــي التنقل بين يوغنده والكنغو يتفقد حال اللاجئيـــن ويقـــوم بدوره الكهنوتي. وطلب من الكهنة في ابرشياتهم المحلـــية فـــي الكنغو أن يسمحوا له برفع القداس وتقبل الاعتراف.

كانت وجهة نظر ساترنينو السياسية أن الحل الوحيد للقضية هو في المقاومة. ولهذا توجه ساترنينو إلى السودان، وعبر الحدود اليوغندية. ويصف لنا نينوكونتران نهاية قصة الأب ساترنينو. الكاهن- والقائد – والثائر، فيقول:

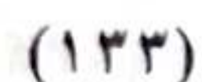
حيث أن الآب ساترنينو كان من أوائل من أدركوا أن الأمل ضعيف جداً للحصول على شئ من العون من الديموقراطيات الأوربية أو الأمريكية، وبالطبع لاشيء من البلاد الشيوعية، لذلك كان الأب ساترنينو من أوائل الذين عادوا سراً إلى جنوب السودان. وفى هذا يقول ساترنينو:" في رأيي الشخصي الذي اقتنع به الآن، هو أن الحل يكمن في السودان من الداخل وليس في التوجهات السياسية التي تأتى من الخارج" (في خطاب له في فبراير ١٩٦٦)

وبالرغم من خطورة مروره بالدوريات العسكرية وطوارئ الحدود، فقد عبر الحدود وسار مئات الكيلومترات سيراً على الأقدام،

او راكباً دراجة في طرق لانهاية لها. مشجعاً للمسيحيين ومنادياً بالمقاومة. لكن الوحشية التي استخدمتها الفصائل العسكرية المكلفة من الحكومة بحفظ النظام في الجنوب، لاشت كل الاحتمالات في الوصول إلى حل سريع للمشكلة.

عندما عاد الآب ساترنينو إلى يوغنده عام ١٩٦٦. أخبروه بالاتفاقية التي عقدت بين كمبالا والخرطوم لوقف تدفق اللاجئين. وفى ١٥يناير ١٩٦٧، صدرت الأوامر للفرق العسكرية المقيمة في جنجا بالتحرك إلى الحدود السودانية.

قرر الأب ساترنينو أن يرجع إلى أهله وشعبه في الجنوب ليخبرهم بالتحرك الجديد. وما حدث بعد هذا القرار يرويه لنا شاهد عيان :" في مساء ٢١ يناير، والآب ساترنينو يواصل سفره متجهاً إلى الحدود السودانية اليوغندية. كان في شدة التعب والجوع بعد سفر ٨٠ كيلو متراً بدراجته. وعند وصوله إلى مدينه باديب (padibe) علم هو ومن معه أن كتائب الجيش اليوغندى تسيطر سيطرة كاملة على الحدود. فداروا في طريق آخر وصل بهم إلى مدينة لوكنق (lokung)



فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. فاستراحوا حتى الساعة السابعة صباحاً، عندما أيقظ الأب ساترنينو اتباعه وهو يقول:" يجب أن أواصل السير. يجب أن أعود إلى السودان" وحاول أتباعه من منعه وهم يقولون له أنه من الخطر عبور الحدود في هذا الوقت بالذات. بل انهم كانوا مستعدين لعبور الحدود والقيام بتوصيل الرسالة لأبناء الجنوب، ولكن الأب ساترنينو رفض هذا العرض معتبراً أنه من الجبن أن يعرضهم للخطر لكي ينقذ نفسه. فطلبوا من بعض تلاميذ المدارس الذين يسكنون قرب الحدود أن يستطلعوا الطريق وهل هو آمن ليعبر منه الأب ساترنينو. وبينما هم في انتظار عودة التلاميذ، والأب ساترنينو يأخذ بعض الصور الفوتوغرافية للمكان، إذا بأصوات طلقات نارية تبدد الصمت. وعلمنا أن حرس الحدود أطلقوا النيران على بعض أبناء الجنوب الراغبين في الهجرة عبر الحدود. وعلمنا أيضاً أن الصرخات التي سمعت هي صرخات الذين سقطوا بنيران حرس الحدود. وقبل أن نتمكن من الابتعاد عن المكان، إذا بفصيلة من الجنود اليوغنديين تتقدم نحونا، وعندما صدر أمر قائد الكتيبة " قف". أشار إلينا بالتقدم رافعين أيدينا ألي فوق. وبعد أن فتشونا وأخذوا من الأب ساترنينو ساعته وما كان معه من نقود قليلة ، اتهمونا بأننا "جواسيس". وهنا تقدم أحد الجنود وهو نوباوى، وكان على ما يبدو أنه يعرف الأب

ساترنينو كما أن الأب ساترنينو تعرف على الجندي وتكلما معاً ببعض الكلمات العربية. وعاد الجندي النوباوى يقول لقائد الكتيبة بأنه يعرف الأب ساترنينو وانه من رجال الدين العاملين في السياسة. وبعد التفتيش، وجدوا خطاباً في جيب الأب ساترنينو معنوناً باسمه وبعض البيانات عنه جعلت قائد الكتيبة يتهم الأب ساترنينو بأنه يفسد الشعب في الجنوب. ثم أمرونا أن نحمل على أكتافنا بعض أمتعة الجنود. وسرنا مع الكتيبة وتحت حراسة الجنود حتى منتصف النهار عندما صدر أمر القائد "قف". وهنا بدأ قائد الكتيبة يعاملنا كأسرى . ثم وجه إلى الأب ساترنينو عدة أسئلة:-

– **هل سترفع القداس أيها الكاهن ؟**

– **وأين سيكون الاجتماع ؟**

– **ومتى سيكون موعد الاجتماع ؟**

– **من أين جئت أيها الكاهن ؟**

ثم استجوبونا نحن. وعادوا يستجوبون الأب ساترنينو مرة أخرى. وفي تلك اللحظة، عاد واحد من التلاميذ الذين طلبنا منهم استطلاع الطريق. وعندما رأى ما يحدث لنا حاول العودة، ولكن الجنود امسكوه واستجوبوه هو أيضاً. فقال لهم أنه طالب في إحدى المدارس وأنه في

أجازه لمدة ثلاثة أيام وهو يسكن في هذه المنطقة، ولكن قائد الكتيبة صرخ فينا: "أنتم جواسيس أرسلتكم فصائل الأنيانيا للتجسس علينا ومعرفة تحركات الكتائب اليوغندية". وبعد أن أبعد الطالب قليلاً حتى لا يسمع ما يقوله القائد لجنوده، أصدر القائد أمره لمجموعة من الجنود أن يأخذونا إلى مركز بوليس لوكنق.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأحد ٢٢ يناير. عندما بدأنا السير إلى لوكنق. فعدنا إلى نفس المكان الذي قبضوا فيه علينا. وهناك أخذنا دراجاتنا وحقائبنا. ومرة أخرى فتشوا الحقائب. فوجدوا في حقيبة الأب ساترنينو جواز سفره (صادر من دولة الكنغو) وبعض النقود. فربطوا الحقائب في الدراجات وأمرونا بالسير تحت حراسة مشددة. وبعد سير طويل شعرنا بالتعب حتى سقطنا على الأرض. فأمر رئيس المجموعة بجلد كل واحد فينا ثلاث جلدات. وتقدم رئيس المجموعة وركل الأب ساترنينو في رأسه، وكذلك فعل جنود آخرون.

بعد أن واصلنا السير مرة أخرى. توقفنا. وجلس رئيس المجموعة يشرب البيرة. ثم قام وضرب الأب ساترنينو ثلاث مرات. وبدأ يتحدث مع جنوده بلهجة الاشولي. ولأننا كنا نعرف هذه

الرطانة، فقد فهمنا أنهم يريدون قتلنا الواحد بعد الآخر. وفكرنا ماذا نفعل. فأشار علينا الأب ساترنينو أن نتخلص من الجنود بأي طريقة، ولكننا أقنعناه بصعوبة هذا الأمر. وربما يطلق صراحنا عند وصولنا إلى مركز بوليس لوكنق خصوصاً وأننا أبرياء من تهمة التجسس. عندما وصلنا قرية اليبى (Alebi) التي تبعد ميلاً واحداً من لوكنق، أمرونا بالجلوس الواحد بجانب الآخر في مواجهة النهر وظهورنا في مواجهة الجنود وعلمنا أن نهايتنا تقترب وأنهم سيطلقون علينا النيران من الخلف. وفجأة قفز الأب ساترنينو وهجم على واحد من الجنود ورماه على الأرض في محاولة لأخذ سلاحه. ولكن الجندي تمكن من الإفلات من قبضة ساترنينو وأطلق النار على رأسه فسقط ميتا. أما نحن فقد هربنا نحو الغابة القريبة.

علمنا في اليوم التالي أن أحد المسيحيين من أبناء المنطقة عندما سمع بجريمة القتل، ذهب وحمل جثه الأب ساترنينو وسلمها إلى أقرب إرسالية حيث تمكن الآباء الكهنة هناك من التحقق من الجثة التي كانت قد تشوهت بسبب الإصابة وبسبب الانتفاخ. ولما تحققوا من أن صاحب الجثة هو الأب ساترنينو، قاموا بالمراسيم لدفنه. وحاولت الراهبات في الإرسالية من وضع الجثة في الملابس الكهنوتية فلم يتم النجاح، فوضعوا الملابس فوقه داخل الصندوق وسمروا على الصندوق صليباً كبيراً.

الخاتمة

حتى بعد موت الأب ساترنينو، لم يتركوه في سلام. فقد تقرر أن يكون القداس الجنائزي على روح الأب ساترنينو الساعة الخامسة مساءً من يوم ١٠ فبراير ١٩٦٧ بالكاتدرائية بالخرطوم، إلا أنه صدر أمر بإلغاء القداس الجنائزي تحت ضغط من المسئولين في الحكومة. وفي عددها الصادر بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٦٧، كتبت جريدة اليقظة(٨) (The vigilant) السودانية التي تصدر في جنوب السودان تقول:

جاء في الصحافة المحلية يوم أمس بيان من وزير الدفاع السوداني بأنه على اتصال بالدوائر الحكومية لوقف القداس الجنائزي المزمع إقامته على روح الأب ساترنينو.

كذلك جاء على لسان السيد الوزير أحمد المهدى الذي كان في يوم من الأيام وزيراً للداخلية في السودان، والذي كان يعتبر الثوار

^ اليقظة (the vigilant) في عددها الصادر بتاريخ ١٠/٢/١٩٦٧

من أبناء الجنوب بأنهم متمردين، قال أنه سيسعى لوقف أي صلوات تقام ترحماً على الموتى وطلب الغفران بالنسبة للأب ساترنينو. لأن الأب ساترنينو كان متمرداً يقود المتمردين. والمتمرد لا تقام صلوات على روحه، ولأن الأب ساترنينو بالذات كان يعمل ضد وحدة البلاد.

وقد نشرت نفس الصحيفة قبل ذلك بأيام. أن الحكومة السودانية عندما علمت بمقتل الأب ساترنينو في الأراضي اليوغندية. بعثت برسالة شكر وامتنان للحكومة اليوغندية لحسن تعاونها. "كان ساترنينو كاهناً ممتازاً، وقائداً ممتازاً، لا يسعى لاهتماماته الشخصية، متعقلاً، يتصرف بكل شجاعة" هذه هي الصفات التي نجدها في "مجلد الكهنوت السوداني"(٩) عن الأب ساترنينو. ويذكره الأباء الكهنة الذين عاصروه بكل الإجلال والاحترام.

ويقول أحدهم: "كان الأب ساترنينو مرهف الحس، يعمل حساباً لأحاسيس الآخرين، ومع أنه كان عنيداً، صلب الرأي، إلا

٩ كتاب يسجل تاريخ الكهنوت السوداني لعام ١٩٦٨

أنـــه كان أيضاً مخلصاً في كل عمله، ثابتاً على مبادئه، يميل قليلاً إلـــى التشـــاؤم، ولكـــنه يتعامل مع المشاكل بكل صراحة ووضوح. محـــترم ومقـــدر مـــن الجميع، يميل إلى المرح ولكن دون تهكم أو سخرية، آمن بحرية شعبه، فحارب من أجل تحريرهم حتى النهاية"

وعـــندما كان يعود بعد رحلة نضال وكفاح. كان يقول:" يكفيني هذا، لم أعد أحتمل كل هذا التعب" ولكنه كان يقوم ويذهب ويناضل ويكافح مرة أخرى من أجل مبادئ آمن بها.

نشـــرت صحيفة (The Guiding Star) ([١٠]) السودانية بعد أن أدانـــت سياســـة العصـــر الحاضـــر الذي أطلقت عليه اسم "سياسة المعـــدة" تقـــول: نحـــن نتذكر اليوم السياسيين العظام ومنهم الأب ساترنينو. الذين لم يخططوا من أجل سياسة الجوع، ولكنهم علمونا كـــيف نقضـــي علـــى أعمال الظلم. أنهم يستحقون منا كل التكريم والـــتقدير لقـــيادتهم النبيلة حتى بعد موتهم. بل هم يستحقون جائزة نوبل للسلام.

---

[١٠] العدد الصادر في ١٩٨٩/١١/١٩

كمرسل للكنيسة الإنجيلية قضيت في السودان الجنوبي عشر سنوات حظيت فيها بزيارة البلاد المذكورة في هذا الكتاب، وأن ألتقي بأبطال مؤمنين بالرب قضوا كل حياتهم في الشهادة للرب وربح الآخرين له.

وكتاب أبطال الإيمان رحلة الإيمان المسيحي في السودان كتاب شيق، ممتع -عينات منتقاه عن الجهاد المستبسل لأبطال الإيمان الذين عاشوا بالدافع الروحي الذي كان للرسول بولس "ولكنني لا أحتسب لشئ ولا نفسي ثمينة عندي حتى أتمم بفرح سعيي والخدمة التي أخذتها من الرب يسوع، لأشهد ببشارة نعمة الله".

في هذا الكتيب نرى نماذج من فاعلية يد الرب العامل لخلاص النفوس من الرق-استعباد الإنسان لأخيه الإنسان- والحرية من سلطان الخطية، ليتمتعوا بالحرية التي في المسيح يسوع وحده.

ومع أن محتويات الكتاب تغطى حقبة من زمن ليس ببعيد-تبلغ مئة سنة - إلا أنه يذكرنا بأن مهمة الكرازة للعالم لم تكمل بعد، ولكنها ستتم بالتحقيق.

ويدعونا الرب أن نقوم بدورنا نحن لتمجيد اسم مخلصنا - العامل في المؤمنين - بالروح القدس لكي يواصلوا الجهاد - مهما كانت التكلفة - عالمين بأنه " في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا".

هنا المتعة الروحية والفكرية. اقرأه بتمعن، وشارك به كثيرين آخرين.

القس سويلم سيدهم

لوجوس